

الوحي المحمدي بين الإمكان والإنكار من منظور حديث

الأستاذ الدكتور

هشام عبد العزيز هلال الأزهري

أستاذ العقيدة والفلسفة المساعد

جامعة الأزهر

مُقَدِّمَة

الحمد لله رب العالمين، الذي أكمل لنا الدين، وأتم علينا نعمه ظاهرة وباطنة، فلك الحمد يا من لك الأمر كله، والملك كله، فسخرت منه ما شئت لمن شئت ممن استخلفته في أرضك فلم يقم بها حق القيام إلا بإعانة منك وفضل، فأرسلت برحمتك رسلاً مبشرين ومنذرين، أخرجوا البشرية بإشراق وحيك، وسطوع هديك من الظلمات إلى النور، ومن ضلالات الجهل وسماديره، إلى أنوار العلم، وحق اليقين.

ونشهد ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ﷺ آخر متلق لوحي السماء، وبعده ما وطأ الأرض أمينه جبريل عليه السلام بوحي، ولكن وحيه ﷻ باق فينا، دائم أبد الآبدين، يهدينا الصراط المستقيم، بحفظ حافظ الذكر، الحكيم الخبير.

وبعد/

فلقد خلق الله ﷻ الإنسان، ومنحه مواهب خاصة من دون سائر خلقه، وسماه إنساناً لأنه يأنس بغيره[1] وجعل له لساناً؛ لينطق ويتحدث به معه، فهو مدني بالطبع لا يمكن أن يعيش وحده، بل يعيش مع بني جنسه، ومع كل من حوله من مخلوقات الله، فما حدود علاقته بخالقه أولاً، ونفسه ثانياً، وغيره ثالثاً،؟ومن الذي يحدد هذه العلاقة؟

هل يضع تلك العلاقات لنفسه، فيسير تبعا لعقله أو هواه فيضل ويتيه؟ أو له ولغيره فكيف يرضاها الآخر وهو مثله؟! وهو في كل ذلك يخطئ ويصيب!

---

(١) اشتقاق الإنسان: من النوس وهو الحركة، فسمي الناس ناساً للحركة الظاهرة والباطنة، أو من الإيناس، أو النسيان... أقوال. ينظر: الزبيدي «تاج العروس» مادة: أنس ١٥/ ٤٢٣، الهائم المصري «التبيان في تفسير غريب القرآن» ١/ ٥٦، ورجح ابن القيم القول الأول، ينظر: ابن القيم/ أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي «بدائع الفوائد» ٢/ ٤٨٨، ت/ هشام عبد العزيز عطا، عادل عبد الحميد العدوي، ط/ مكتبة نزار مصطفى الباز ـ مكة المكرمة ـ ط/ ١، سنة ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م.

وإذا كان لا يقدر أن يحدد بنفسه هذه العلاقات، وبخاصة صلته بربه ومعرفة صفاته، فكيف يعي أمر هذا الوجود؟ كيف المبدأ، وإلام المصير؟

إن الإنسان صنعة خالقه، خلقه في أجمل صورة وأحسن تقويم، ولكنه ركن إلى ملكاته فقط فرُد إلى أسفل سافلين(١) بما جنت يداه، ردة في الجسم والعقل والعلم، إلا من تعلق ببارئه، عرفه فأطاعه فيما أمر، وانتهى عما نهى ..

ولكن كيف يعلم الإنسان مراد الله منه؟ وكيف يكون الاتصال بينه وبين خالق الوجود؟ كيف نجيب على تلكم التساؤلات التي تذر الإنسان دونها حيران؟

إن العقل لا يقنع إلا بتحقيق كمال الاتصال من صانعه، الذي هو أعلم بنا من أنفسنا، وأدرى بما يصلحنا ويفسدنا، ولن يكون هذا إلا برسول يختاره من البشر، ينبئهم بما يرضي عقولهم ويُطمئنُ قلوبهم، وأنه لم يتركهم هملاً دون إجابة لكل ما دار في خلدهم من تلك الأسئلة وغيرها، ولكي يُنْبأَ هذا الرسول البشري بما يهدي البشرية الحائرة إلى سبيل الرشد في العاجل والآجل، كان لا بد من الوحي الإلهي الذي يوحيه الله ﷻ إلى أنبيائه ممن اصطفاهم من آدم وذريته، بطرق متعددة.

وحي ثابت بيقين، لا يتطرق إليه شك أو ظن أنه من لدن حكيم عليم، على أيدي أنبياء معصومين من الزلل والمعاصي، يحققون الأسوة الحسنة لبني جنسهم، ويقوِّمون النفوس المنحرفة عن الحق، ويعينوهم على السداد، فيأتون ما يجب ويذرون ما يُكره، ويكملون الفطر الناقصة بوضع السنن الكاملة، والوعظ والتذكير بالترغيب والترهيب، فيتبعونهم على طريق الهدى، لا غي ولا ضلال، حتى يعود

(١) قال ﷻ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥﴾ [التين].

الإنسان ـ باتباعه إياهم ـ كائناً سوياً كما صوره صانعه أول مرة، وأراد له أن يكـون، فيدخل في الاستثناء المنجي من السفل والخسران[(١)].

ولقد تعدد وحي الله ﷻ الأنبياء، ما بين مكتوب في ألـواح، أو تعـاليم شـفهية ينقلهـا النبي بلفظه، أو ينزل بنصه ولفظه من الله ﷻ ومن هذا النـوع الأخـير الـوحي إلى نبينـا ﷺ وهو أهم أنواع الوحي؛ إذ إن يد التحريف والتبديل لم ولـن تمسـه، كـما أنـه شـاهد ودليـل على وجود الوحي بأنواعه إلى جميع الأنبياء؛ ولذا فـإن فإننـا سـوف نركـز في هـذا البحـث على الوحي إليه ﷺ ، وإمكانه عقلا وعلما، هو أبلغ حجة وأسطع برهان على وجود وحـي السماء إلى جميع الأنبياء والمرسلين، وإثبات نبوتهم ورسالتهم.

ومـن هنـا فسـوف نقتصرـ عـلى الـوحي إلى نبينـا ﷺ فقـط، وإثباتـه مـن منظـور العلـم الحديث.

ولقد كثر المنكرون لنبوة محمد ﷺ قديمًا وحديثًا، وأثاروا الشكوك حوله، نتيجة لشكهم في إمكان حصول الوحي إليه، ولو أدركوا إمكان حصوله ووقوعه فعلًا لزال الشك من نفوسهم، ومحيت الشبهات مـن عقـولهم، وقـد قـام علـماء الإسـلام في القـديم والحـديث بـالرد عـلى هـذه الشبهات، وأقاموا الأدلة العديدة على إمكان الوحي وثبوته له ﷺ.

وكانت معظم هذه الأدلة تـدور حـول محـورين: الإمكـان العقـلي، والوقـوع الفعـلي، وهذا جهد محمود مشكور.

---

(١) قال ﷻ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ۝٦﴾ [التين]، ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ۝٣﴾ [العصر].

ولكن في ظل التقدم العلمي الكبير، والاختراعات العظيمة التي نعيشها اليوم في كل المجالات، ظهر الكثير من الدلائل العلمية الحديثة التي تثبت الغيبيات، والاتصال الروحي بين الأشياء، وبالتالي إمكان الوحي ووقوعه، فالعلم الحديث يؤيد ذلك ويعاضده، ولا يحيله أو ينكره.

ومن هنا كانت أهمية هذا الموضوع الذي عنوانه: «إمكان الوحي من منظور العلم الحديث».

ولا أدعي في هذا الطرح ولا أطمح إلى إثبات الوحي بالأدلة العلمية الحديثة، ففرق كبير بين الميدانين، ولكل منهجه وطريقه، فطريق إثبات الوحي هو النقل، ومعاينة الموحى به، وما به من وجوه الإعجاز المتعددة، وطريق العلم التجريبي هو الحس والمعاينة والتجربة على أرض الواقع، فلا يمكن تداخل المنهجين، ولكني أتطلع فقط إلى إثبات أن الوحي لا يتعارض مع معطيات العلم الحديث، بل إنه يدل على إمكانه في ظل اعترافه بوجود الغيبيات والروحانيات وأثرهما الكبير في حياتنا، فهو لا ينكر هذه القضايا، وإنما يؤيدها ويعاضدها.

إنني في هذا البحث أستأنس فقط بالقضايا الغيبية المسلمة في العلم الحديث كطريق لبيان جواز الاتصال والتأثير الروحي والفكري بين البشر، وبينهما وبين بعض المخلوقات من الجمادات والحيوانات، وإمكان ذلك من الناحية العلمية والعملية، وليس للتدليل على قضية الوحي بذاتها؛ فإنها ثابتة بالإمكان العقلي، والوقوع الفعلي.

أهداف البحث:

١ - إمكان الوحي وعدم استحالته من منظور العصر الحديث.

٢ - إثبات أن العلم نفسه قائم ومعتمد على مسلمات علمية غير مشاهدة في الحقيقة، بل إنها واقعة في دائرة الغيب.

٣- الوقوف على النظريات المستجدات العلمية التي تؤكد وتثبت وجود الغيبيات.

٤ – إثبات الأمور الروحية، وأنها موجودة بشكل أكبر من الظاهر المعاين.

٥ - إمكانية تلقي البشر أمورًا روحانية لا يراها إلا من اختص بها، ولا يشعر أو يحس بها من حولهم.

٦ - تأثير الروح في الجسم أكبر من تأثير غيرها فيه، وأنها هي التي تقود البدن، وليس العكس.

٧- أن الوحي وإن كان غيبيا، إلا أنه لا يتعارض مع العلم التجريبي الحديث، بل إنه يؤيد وقوعه وحدوثه، وبالتالي إمكان النبوات.

مشكلة البحث: وتكمن في المانعين للوحي – إلى نبينا محمد ﷺ خاصة – من الحسيين الذين رفضوا كل ما يتعلق بالأمور الروحية، أو المعتقدين فيه من المتفلسفين الذين قرروا الوحي، ولكن من غير الطريق الذي جاء به الشرع، وكذا فريق من الغربيين الذين فسروه بمعان بشرية وأسباب نفسية، من الممكن أن تتهيأ لكل من تحققت فيه.

والبحث بدوره يرد على كل هؤلاء، ويثبت الغيبيات من واقع العلم الحديث.

حدود البحث: يتعلق بالمنكرين للوحي إلى نبينا محمد ﷺ وإمكانه، والرد عليهم بالأدلة المتنوعة، في ظل علوم العصر الحديث.

الدراسات السابقة: تناولت كتب وأقلام القدماء والمحدثين – على السواء – هذا الموضوع بالبحث والدراسة من وجوه متعددة[١] ولكنها تعرضت له من الناحية العقلية، وإقامة الأدلة على وقوعه بالفعل، ولكنها لم تتعرض لإمكان الوحي من منظور حديث كبحث مستقل، الأمر الذي تلتزم به هذه الدراسة.

منهج البحث: اعتمد الباحث على المنهج التحليلي الاستدلالي، الذي يتناول المادة العلمية بالتحليل والتفصيل، ثم الاستدلال عليها عن طريق القوانين والنظريات العلمية الحديثة، والانتقال منها إلى قضية إمكان الوحي؛ لأنها واقعة تحت الأمور الغيبية التي أثبتت الأدلة العلمية الحديثة إمكان وقوعها، ووجودها بالفعل.

خطة البحث: اقتضت طبيعة البحث أن يشتمل على مقدمة، وثلاثة مباحث، وخاتمة.

فأما المقدمة: فقد تعرضت فيها لأهمية الموضوع، وأهدافه، ومشكلته، وحدوده، والدراسات السابقة له، ومنهج البحث فيه، وخطته.

المبحث الأول: معنى الوحي وحاجة البشرية إليه، وهو من مطلبين:

المطلب الأول: معني الوحي.

المطلب الثاني: حاجة البشرية إلى الوحي.

---

(١) تعرض له قديماً على سبيل المثال: الإمام الشهرستاني في كتاييه: «الملل والنحل» و «نهاية الإقدام في علم الكلام» كما تعرض له ابن تيمية في كثير من كتبه، وكذا تلميذه ابن القيم، وفي الحديث: الإمام محمد عبده في «رسالة التوحيد» كما أتى تلميذه الشيخ محمد رشيد رضا بمؤلف لم يسبق إليه، وهو كتابه «الوحي المحمدي» ولكنه ركز فيه على عرض شبهات المنكرين والرد عليها، وبيان أوجه إعجاز القرآن ومقاصده المتنوعة.

المبحث الثاني: أنواع الوحي وكيفية وقوعه، ويتكون من مطلبين:

المطلب الأول: أنواع الوحي.

المطلب الثاني: كيفية وقوعه.

المبحث الثالث: شبه المنكرين للوحي والرد عليهم، ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأول: شبه المنكرين قديمًا والرد عليهم.

المطلب الثاني: شبه المنكرين حديثًا والرد عليهم.

المبحث الرابع: إمكان الوحي من منظور العلم الحديث.

وأما الخاتمة: فقد تعرضت فيها لأهم نتائج البحث.

والله أسأل التوفيق والسداد، والهداية والرشاد، وأن يجعله عملاً موفقاً مقبولاً، راجياً من الله ﷻ أن يجعله في ميزان حسنات قارئه وكاتبه، وأن ينفع به المسلمين أجمعين.

وما كان من صواب وسداد في هذا العمل فمن الله وحده، وبفضله العظيم، وما كان من سهو، أو خطأ، أو نسيان، فمني ومن الشيطان.

وبالله التوفيق ومنه الهداية وعليه التكلان
وهو نعم المولى ونعم النصير

المبحث الأول
معنى الوحي وحاجة البشرية إليه

المطلب الأول: معنى الوحي

لنتعرف معنى الوحي، ونستقي مرامي اللفظ بدقة؛ لا بد أن نمر على دلالتيه اللغوية والاصطلاحية، ثم المعنى في القرآن والسنة:

١- **الوحي لغة**: جاء في القاموس: وَحَى: الواو، والحاء، والحرف المعتل أصل يدل على إلقاء علم في إخفاء وسرعة، ولتضمن الوَحْي معنى السرعة قيل: أَمْرٌ وَحِيٌّ أَي: مسرِع، من وَحَي إليه يحي، من باب وعد يعِد، وجمعه وُحِي مثل حَلْي وحُلِي، وأَوْحَى إليه بالألف مثله من الإيحاء، يقال وَحيْتُ إلى فلان أَحِي إليه وَحْياً وأَوْحَيْتُ إليه أُوحِي إيحاءً: أشرتَ إليه وأومأْتَ، وأوحى إليه بعثه، وألهمه، وهي اللغة الفاشية في القرآن...

وعلى هذا فالوحي اسم مصدر من الإيحاء، أو الشيء الموحى به.

والوحي: الإشارة، والإلهام، والكتابة، والرسالة، والصوت يكون في الناس وغيرهم، وكل ما ألقيته إلى غيرك حتى علمه فهو وحي، ثم غلب فيما يلقى إلى الأنبياء من قبل الله.. والوَحا: العجلة، يقولون: الوَحا الوَحا، والوَحاءَ الوَحاءَ، أي: الإسراع، فيمد ويقصر(١).

ومن خلال هذا العرض للمعاني اللغوية نرى أن جلها يدور حول الإشارة في خفاء وسرعة بحيث يخفى على غيره – وهذا معنى الأصل - وهو معنى المصدر، وكذا الإلهام، والكتابة، والرسالة، والصوت.

---

(١) ينظر من المعاجم: ابن فارس «مقاييس اللغة» ٦/ ٩٣، ابن سيده «المحكم والمحيط الأعظم» ٣/ ٥١١، ٤/ ٣٦: ٣٨، الزبيدي «تاج العروس» ٤٠/ ١٦٩، وما بعد، الرازي «مختار الصحاح» ١/ ٢٩٧، المقري «المصباح المنير» ٢/ ٦٥١، ٦٥٢، الفيروزآبادي «القاموس المحيط» ١/ ١٧٢٩، قارن: دراز/ د: محمد عبد الله «المختار من كنوز السنة» ص١، عني بنشره عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، قطر، سنة ١٩٨٢م.

ووحي الله إلى أنبيائه بأنواعه المختلفة قد روعي فيه هذان المعنيان، قال ابنُ الأنْبارِي: سُمِّي وَحْياً لأنَّ الملكَ أَسَرَّه عن الخَلْق وخَصَّ به النَّبيَّ المَبْعوثَ إليه..

وأَصْلُ الإيحاءِ: أنْ يَسرَّ بعضُهم إلى بعضٍ كما في قولهِ ﷻ: ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾[1] هذا أَصْلُ الحَرْف، ثم قُصِرَ أَوْحاهُ على مَعْنى أَلْهَمَهُ، وقالَ أَبو إسحق: أَصْلُ الوَحْي في اللغةِ إعْلامٌ في خَفاءٍ؛ ولذلكَ صارَ الإلْهامُ يُسَمَّى وَحْياً، وكَذلكَ الإشارَةُ والإيماءُ يُسَمَّى وَحْياً، والكِتابَةُ تُسَمَّى وَحْياً وقولُه ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ﴾[2] مَعْناهُ: إلاَّ أنْ يُوحِيَ إليه وَحْياً فيُعْلِمَه بمَا يَعْلمُ البَشَرُ أنَّه أَعْلَمَه، إمَّا إلْهاماً، أَو رُؤْيا، وإمَّا أن يُنْزل عليه كتاباً كما أُنْزل على موسَى عليه السلام أَو قُرآناً يُتْلى عليه كما أَنْزَله على سيِّدِنا محمد ﷺ وكلُّ هذا إعْلامٌ، وإن اخْتلَفَتْ أَسْبابُها، والكَلامُ فيها[3].

ويمكن أن نجمع تلك المعاني فنقول: أصل معنى الوحي: «يطلق على التفهيم وعلى الإعلام بالشيء في خفاء، سواء كان هذا التفهيم والإعلام بكلام، أم بكتابة،

(١) الأنعام: ١١٢.

(٢) الشورى: ٥١.

(٣) تاج العروس ٤٠/ ١٧١، ١٧٢، الأزهري «تهذيب اللغة» ٥/ ١٩٣، وهذا إجمال له تفصيل عند حديثنا عن أنواع الوحي في المبحث الثاني.

أم بإشارة، أم بإلهام، أم برؤيا»[١].

ويطلق الوحي أيضًا على متعلقه، أي الموحي به، وهو ما أنزله الله علـى أنبيائـه، وعرفهم به من أنباء الغيب، والشرائع والحكم، منهم من أعطاه كتاباً، ومـنهم مـن لم يعطه[٢] فالقرآن الكريم والكتب المنزلة تسمى وحياً.

ويلاحظ أن الوحي بالمعنى اللغوي يكون من الله ومن غيره، فهـو مـن الله نبـأ وإلهام، ومـن النـاس إشـارة، قـال ﷻ: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾[٣]، وقـال في قصة زكريا عليه السلام: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُواْ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾﴾[٤].

وإذا كان الوحي هو إلقاء المعنى في النفس في خفـاء، إلا أنـه لا يجـوز أن تطلـق الصفة بالوحي إلا لنبي[٥].

وكما ورد الوحي في حق الأنبياء ورد أيضاً في حق الأولياء وسائر الناس بمعنى الإلهام، وورد في الحيوانات بمعنى خاص[٦]، فليس كل من أوحي إليه الوحي العام

(١) أيوب/ حسن «تبسيط العقائد الإسلامية» ص١١٢، ط/ دار السلام، ط/ ٣، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م، وينظر: عبد الرازق/ د. مصطفى «الدين والوحي والإسلام» ص٤٧، ٤٨، الناشر/ مكتبة الثقافة الدينية، ط/ ١، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٧م.

(٢) ينظر: رضا/ الشيخ محمد رشيد «الوحي المحمدي» ص٧، ط/ الزهراء للإعلام العربي، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨م.

(٣) النحل: ٦٨.

(٤) مريم، وينظر: جمهرة اللغة ١/ ٢٣١، الدين والوحي والإسلام، مصطفى عبد الرازق ص٤٩.

(٥) المناوي/ محمد عبد الرؤوف «التوقيف على مهمات التعاريف» ص٧٢١، ت/ د: محمد رضوان الداية، ط/ دار الفكر المعاصر، دار الفكر - بيروت، دمشق، ط/ ١، سنة ١٤١٠هـ.

(٦) الكفومي/ أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني «الكليات» ١/ ٩١٨، ت/ عدنان درويش، محمد المصري، ط/ مؤسسة الرسالة - بيروت - سنة ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

يكون نبياً؛ فإنه قد يوحي إلى غيرهم، على ما سنبين(١).

٢ - الوحي في الاصطلاح: للوحي اعتبارات عدة، تختلف بحسبها التعاريف فهو في لسان الشرع: «أن يعلم الله تعالى من اصطفاه من عباده كل ما أراد اطلاعه عليه من ألوان الهداية والعلم، ولكن بطريقة سرية خفية غير معتادة للبشر»(٢).

وبالمعنى المصدري: التعليم السري الصادر من الله إلى أنبيائه بواسطة أو بغيرها(٣).

وبالمعنى الحاصل بالمصدر، أي: المفهوم من المصدر: «عرفان يجده الشخص من نفسه مع اليقين بأنه من قبل الله بواسطة، أو بغير واسطة»(٤).

وباعتبار الموحى به: «كلام إلهي منزل على نبي بواسطة الملك أو بإلقاء معنى في الروع»(٥) سواء أكان مكتوباً كالكتب المنزلة أم لا، كالأحاديث النبوية والقدسية.

---

(١) وذلك عند حديثنا عن الوحي في القرآن. وينظر: ابن تيمية/ تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام الحراني «النبوات» ص٢٧٢، ٢٧٣، ت/ محمد عبد الرحمن عوض ط/ دار الريان للتراث، ط/ ١، سنة ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م، ابن القيم/ أبو عبد الله محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي «مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين» ١/ ٤٤، ٤٥، ت/ محمد حامد الفقي، ط/ دار الكتاب العربي - بيروت - ط/ ٢، سنة ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م.

(٢) الزرقاني/ محمد عبد العظيم «مناهل العرفان في علوم القرآن» ١/ ٤٦، ط/ دار الفكر - لبنان - ط/ ١، سنة ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.

(٣) ينظر: «المختار من كنوز السنة» ص١.

(٤) عبده/ الشيخ محمد «رسالة التوحيد» ص٥٧، ط/ دار الكتاب العربي، سنة ١٣٨٥هـ - ١٩٦٦م.

(٥) السيوطي/ أبو الفضل عبد الرحمن جلال الدين «معجم مقاليد العلوم» ص٧٤، ت/ د: محمد إبراهيم عبادة، ط/ مكتبة الآداب - القاهرة، ط/ ١، سنة ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م، قارن: لجنة من قسم العقيدة والفلسفة بجامعة الأزهر «دراسات في العقيدة الإسلامية والأخلاق ص١١٩، ١٢٠، طبع بمطابع أخبار اليوم، سنة ١٤٣١- ١٤٣٢هـ/ ٢٠١٠ - ٢٠١١م.

ونقل الإمام محمد عبده عن بعضهم تعريفاً آخر فقال: «وقد عرفوه شرعاً أنه: إعلام الله تعالى لنبي من أنبيائه بحكم شرعي ونحوه»[١]، وهذا معنى شرعي عام يشمل كل وحي إلهي يختص به نبي من أنبياء الله ﷺ وهو تعريف - وإن لم يعول عليه الإمام - جامع مانع، يجمع التعاريف السابقة ويشملها باعتباراتها المختلفة، وينظمها في نسق لا يدخل فيه غيره.

ويذكر لنا الشهرستاني تعريفاً تمثيليًا وصفياً لصورة تلقى الوحي من الله ﷻ لأنبيائه، فيقول: «والوحي إلقاء الشيء إلى الشيء في سرعة، فيلقي الروح الأمر إليه دفعة واحدة بلا زمان ﴿كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ۝٥٠﴾[٢] فيتصور في نفسه الصافية صورة الملقي، كما يتمثل في المرآة المجلوة صورة المقابل، فيعبر عنه إما بعبارة قد اقترنت بنفس التصور، وذلك هو: ﴿..ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ..﴾[٣] أو بعبارة نفسه، وذلك هو أخبار النبوة، وهذا كله بطرفه الروحاني»[٤].

والشهرستاني بذلك يجمع تعاريف الوحي باعتباراته السابقة في صورة جمالية إبداعية، لا يخفى ما فيها من جانب إشراقي روحاني، على حد قوله.

(١) «رسالة التوحيد» ص٥٧.

(٢) القمر.

(٣) يونس: ١، الرعد: ١.

(٤) الشهرستاني/ أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أحمد «الملل والنحل» ٢/ ٣٧، ت/ محمد سيد كيلاني، ط/ دار المعرفة ـ بيروت ـ سنة ١٤٠٤هـ، قارن: نهاية الإقدام في علم الكلام ص٤٦٥، ت/ ألفريد جيوم، ط/ مكتبة زهران، بدون، البيضاوي/ الإمام ناصر الدين عبد الله بن عمر «طوالع الأنوار من مطالع الأنظار» ص٣١٦، ت/ د: محمد ربيع جوهري، ط/ دار الاعتصام، ط/ ١، سنة ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.

ونتبين من هذا إلى أنه لا منافاة بين المعنيين اللغوي والاصطلاحي، ولكن في الأول زيادة معانٍ يقتضيها اللفظ، فإنه يتوسع فيه ما لا يتوسع في غيره، وفي الاصطلاحي زيادة مفهوم يلزم التضييق في الماصدق، وأما الثاني فلا يتوجه إلا إلى الأنبياء، بيد أن المعنى الحاصل بالمصدر (عرفان يجده الشخص من نفسه) يشملهم وغيرهم من الأولياء والملهمين، وثمة فارق بينهما سنبينه في حينه.

٣ـ اللفظة في القرآن الكريم: وردت مادة وحي وأوحى، ومشتقاتهما في الكتاب العزيز ما يقرب من (١٢٢) مرة دارت معظمها حول المعنيين اللغوي والاصطلاحي، وغالب ما جاء في القرآن كان بمعنى الإيحاء، فقد ورد الكتاب به على معان مختلفة يجمعها تعريف الموحى إليه بأمر خفي من إشارة، أو كتابة، أو غيرهما، وبهذا التفسير يعد الإلهام وحياً، فلما كان الله ﷻ ألقى هذه الأشياء إلى الرسول ﷺ بواسطة جبريل عليه السلام بحيث يخفى ذلك على غيره سماه وحيًا[1]، فإن سمينا ما يقع من الإلهام الصادق لغير الأنبياء وحياً، فإنما هي تسمية لغوية بالمعنى الأعم؛ لأن اللغة ـ كما عرفنا ـ تسمي كل إلهام وحياً، سواء كان صادراً من الله أم لا، وسواء كان لنبي أو لا[2].

وكل ما جاء من وحي إلى الأنبياء في القرآن من قبيل الوحي بمعناه الشرعي، أما الوحي إلى غير الأنبياء فهو من المعنى اللغوي، وزيادة معان أخر، ومنه: الإشارة السريعة على سبيل الرمز، أو التعريض، أو الكتابة كقوله ﷻ: ﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن

(١) ينظر: عبد الباقي: أحمد فؤاد «المعجم المفهرس لألفاظ القرآن» ص٣٠٩: ٣١١، تفسير الرازي ٨/ ٤٠.

(٢) ينظر: المختار من كنوز السنة ص٤، حتى إنه قد جاء الوحي منسوباً إلى الشيطان، ومنه قوله ﷻ: ﴿..شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗا ..﴾ [الأنعام: ١١٢] وقوله: ﴿.. وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ ..﴾ [الأنعام: ١٢١]، «النبوات» ص٢٧٣.

سَبِّحُواْ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾﴾[١].

ومنه الإلهام: مثل قوله ﷻ: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾[٢].

والتَسْخِير – وقيل الإلهام أيضاً – كقوله ﷻ: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾[٣].

ومنه الأمر: وهو قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ ﴾[٤] أي: أمرتهم بالإيمان، وقيل معناه: أَلْهَمْتُهم، قال أبو السعود: «ومعنى إيحائه تعالى إليهم: أمره تعالى إياهم في الإنجيل على لسانه عليه السلام»[٥] فالوحي هنا كان بواسطة عيسى عليه السلام .

وكذلك في قوله جل جلاله: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾﴾[٦] أي: أمرها، وهذا معنى جديد أفاده الكتاب المجيد زائداً على المعنى اللغوي.

والله سبحانه وتعالى يوحي ـ كذلك ـ إلى الملائكة ما يأمرهم بفعله، كقوله: ﴿إِذْ يُوحِي

---

(١) مريم.

(٢) القصص: ٧.

(٣) النحل: ٦٨، وينظر تفاسير: الرازي ١١/ ٨٦، ٢٠/ ٥٧، ٢١/ ١٦٢، ٢٢/ ٤٥، القرطبي ٦/ ٣٦٣، ١٥/ ٣٤٥، البيضاوي ٤/ ٧، أبو السعود ٦/ ١٤، والتعاريف ص٧٢٢.

(٤) المائدة: ١١١، وينظر تفاسير: الطبري ٣/ ٣٦٦، ٧/ ١٢٨، القرطبي ٤/ ٨٥، ٨٦، أبو السعود ٣/ ٩٦، البيضاوي ٢/ ٣٧٩، مع بصائر ذوي التمييز ٥/ ١٧٩، ١٨٠، «المفردات في غريب القرآن» ص٥١٥.

(٥) ينظر: تفسير أبو السعود ٣/ ٩٦، تفسير القرطبي ٤/ ٨٥، تهذيب اللغة ٥/ ١٩٢.

(٦) الزلزلة، وينظر: تفسير القرطبي ٢٠/ ١٤٩، وينظر كذلك في معاني الوحي: الدين والوحي والإسلام، د. مصطفى عبد الرازق، ص٤٩: ٥٣.

رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾[١] وهذا وحي بواسطة اللوح والقلم[٢].

ويوحي إلى ملك الوحي ما يوحيه الملك إلى الرسول، كقوله: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾﴾[٣] أي: أوحى إلى عبده جبريل ﷺ ما أوحى جبريل إلى محمد ﷺ[٤] وهو بمعنى المفعول، أي: الموحَى به.

ويوحي إلى السماء كما قال: ﴿..وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا..﴾[٥].

٤ ـ **المعنى في السنة**: تناولت الأحاديث المشرفة الوحي بمشتقاته بالمعنى الاصطلاحي – غالبًا – وهو الوحي إلى الأنبياء فبينت أنواع الوحي: كالرؤيا الصادقة[٦] وكيفية نزول الوحي عليه ﷺ وبمعنى الموحى به كالقرآن والسنة[٧].

---

(١) الأنفال: ١٢.

(٢) ينظر: المفردات ص٥١٦.

(٣) النجم.

(٤) ينظر: الوحي المحمدي ص٧، قارن صحيح ابن حبان ١/ ٢٥٦، وهذه إحدى معاني الآية.

(٥) فصلت: ١٢. والموحى إليهم هنا قد يكون محذوفاً ذكره، كأنه قال أوحى إلى الملائكة لأن أهل السماء هم الملائكة، وقد يكون الموحى إليه هي السماوات، وذلك تسخير عند من يجعل السماء غير حي، ونطق عند من جعلها حياً. ينظر: المفردات ص٥١٦.

(٦) من ذلك: قول عَائِشَةَ رضي الله عنها «أَوَّلُ ما بُدِئَ بِهِ رسول اللَّهِ ﷺ من الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ في النَّوْمِ فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إلا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ» رواه البخاري في باب كيفية بدء الوحي ١/ ٤، ح٣.

(٧) من ذلك حديث «.. فإن الْوَحْيَ لم يَأْتِنِي وأنا في ثَوْبِ امْرَأَةٍ إلا عَائِشَةَ..» رواه البخاري في كتاب الهبة، بَاب من أَهْدَى إلى صَاحِبِهِ ٢/ ٩١١، ح٢٤٤٢، وقول النبي ﷺ: «ثُمَّ فَتَرَ الْوَحْيُ عَنِّي فَتْرَةً فَبَيْنَا أنا أَمْشِي» الحديث، رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب بدء الوحي ١/ ١٤٣، ح١٦١.

وتناولت السنة النبوية أيضاً الوحي بالمعنى اللغوي، كالإشارة السريعة على سبيل الرمز، أو التعريض، أو الكتابة، وذلك إلى غير الأنبياء(١).

وورد الوحي أيضاً بمعنى الأمر(٢) وبمعنى السرعة، ومنه حديث: «إذا أردت أمراً فتدبر عاقبته، فإن كانت شراً فانته، وإن كانت خيراً فتوحه، أي: أسرع إليه»(٣).

وبالجملة لم تترك السنة النبوية معنى للوحي إلا وجاءت به.

وبعد بيان هذه المعاني التي فسرت لنا اللفظة، نلحظ الآتي:

- لا يوجد تعارض بين تلك المعاني، وإنما التوافق هو السمة العامة لها.
- زيادة المعنى اللغوي عن الاصطلاحي، أما في القرآن والسنة فقد تمثلت في الكلمة كل المعاني اللغوية وزيادة.

---

(١) من ذلك: الوحي إلى الجماد (قرية) كما في حديث الرجل الذي قتل تسعة وتسعين نفساً: «..فَأَوْحَى الله إلى هذه أَنْ تَقَرَّبِي وَأَوْحَى الله إلى هذه أَنْ تَبَاعَدِي ..» رواه البخاري في كتاب الأنبياء، باب حديث الغار ٣/ ١٢٨٠، ح٣٢٨٣، والوحي إلى الجنة والنار، ومنه ما روي عن النبي ﷺ قال: « وقالت الجنة: يدخلني الفقراء والمساكين فأوحى الله إلى الجنة أنت رحمتي أسكنك من شئت، وقال للنار: أنت عذابي أنتقم بك ممن شئت..» الأحاديث المختارة ٧/ ٧٦، ومنه وحي الشيطان: فعن النبي ﷺ قال: «كانت حواء لا يعيش لها ولد، فنذرت لئن عاش لها ولد تسميه عبد الحارث، فعاش لها ولد فسمته عبد الحارث، إنما كان ذلك عن وحي الشيطان» رواه الحاكم في مستدركه ٢/ ٥٩٤، ٤٠٠٣، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، والترمذي ٥/ ٢٦٧، ح٣٠٧٧.

(٢) ومنه: ما روي عن علي ـ كرم الله وجهه ـ عن النبي ﷺ قال: «يوحي الله تعالى إلى الحفظة الكرام البررة لا تكتبوا على عبدي عند ضجره شيئا» كنز العمال ٤/ ٩٩، ح١٠٣٢٠، ولم أقف على درجة صحته، وعن النواس بن سمعان ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله أن يوحي بأمره تكلم بالوحي» مجمع الزوائد ٧/ ٩٤، كنز العمال ٢/ ١٧، عمدة القاري ١/ ٤٥، وفي بعض رواته كلام.

(٣) النهاية في غريب الأثر ٥/ ١٦٢، ولم أجده بنصه، وإنما موقوفاً على عبد الله بن مسعود ﷺ بلفظ: «إذا أردت أمراً فتدبر عاقبته فإن كان خيراً فامضه وإن كان غياً فانته» كنز العمال ١٥/ ٣٣٥، ح٤٣١٥٠.

- لم يقتصر الوحي على الأنبياء فقط، بل العلاقة موصولة بين رب العالمين وبين خلقه أجمعين بأنواع الوحي اللغوي من إلهام، أو تسخير، أو أمر...
- ينصرف الوحي عند إطلاقه إلى الأنبياء فقط دون غيرهم، وحينئذ يتحقق المعنى الاصطلاحي، دون سواه.

إن المتتبع للقرآن الكريم في آياته البينات التي جاءت لتقرير قضية الوحي، وكذا ما استفاضت به السنة النبوية الصحيحة، يرى أن حديث هذين المصدرين العظيمين عن هذه الظاهرة، واضح كل الوضوح في أن الوحي إلى الأنبياء عليهم السلام إنما مصدره إلهي لا شك فيه، وأنه حقيقة خارجية، بمعنى أنه ليس من قبيل حديث النفس، ولا من ولادة الخواطر، أو المقدمات العقلية، أو تعلم العلوم ودرسها، ثم تعبيرها وشرحها...الخ، قال عز وجل: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ..﴾[1] وقال: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٣﴾[2]، فقد أسندت الآيات فعل الإيحاء إلى الله سبحانه وتعالى فحددت مصدره، وقطعت الطريق على أي تفسير آخر له[3].

«فالوحي الشرعي بكل أنواعه يصاحبه علم من الموحى إليه بأن ما ألقي إليه حق معصوم من عند الله، فليس هو من خطرات الأوهام، ولا من نزغات الشيطان،

(١) النساء: ١٦٣.

(٢) الشورى.

(٣) ينظر: نصار/ د: محمد عبد الستار، المناعي/ د: عائشة يوسف «أصول العقيدة الإسلامية من الكتاب والسنة» ص٢١٠، ٢١١، ط/ ٣، سنة ١٤٢٧هـ- ٢٠٠٦م.

وهذا العلم يقيني ضروري، لا يخالجه شك، ولا يتولد من مقدمات، بل هو من قبيل إدراك الأمور الوجدانية، كالجوع، والشبع، والحب، والبغض»[(١)].

ومن العجيب أن المنكرين للوحي يرفضون فقط صورته الشرعية؛ فلا يؤمنون بوحي السماء إلى كل الأنبياء، وليس عندهم أدنى إشكال في قبول الوحي بمعناه اللغوي أو بما تخيلته أذهان الفلاسفة، وربما يعود ذلك إلى أن الإيمان بهذه المعاني لا يترتب عليه تكليف ولا إلزام، بخلاف الوحي إلى الأنبياء بمعناه الشرعي، الذي يوجب على البشرية الإنصات إليه واتباعه.

(١) المختار من كنوز السنة ص٣.

المطلب الثاني: حاجة البشرية إلى الوحي

إن الله ﷻ يصطفي من عباده من يشاء لإبلاغ وحيه إلى الخلق، وليس هذا الاصطفاء راجع إلى كثرة عبادات ومجاهدات أو إلى استعداد نفسي ذاتي، أو أعراض وأحوال مكتسبة، أو أي تهيأ أخر سوى تفضل الله ﷻ على من يشاء لتحمل وحي السماء، فيعده إعداداً خاصاً لهذه الرسالة العظمى، وهذا ما قاله أهل الحق: «النبوة ليست صفة راجعة إلى نفس النبي، ولا درجة يبلغ إليها أحد بعلمه وكسبه، ولا استعداد نفسي يستحق به اتصالاً بالروحانيات، بل رحمة من الله تعالى، ونعمة يمن بها على من يشاء من عباده... قال ﷻ: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ﴾[1]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٣﴾[2].

ويقول ابن خلدون: «اعلم أن الله ﷻ اصطفى من البشر أشخاصاً فضلهم بخطابه، وفطرهم على معرفته، وجعلهم وسائل بينهم وبين عباده، يعرفونهم بمصالحهم، ويحرضونهم على هدايتهم، ويأخذون بحجزاتهم عن النار، ويدلونهم على طريق النجاة، وكان فيما يلقيه إليهم من المعارف، ويظهره على ألسنتهم من الخوارق، والأخبار الكائنات المغيبة عن البشر، التي لا سبيل إلى معرفتها إلا من الله بوساطتهم، ولا يعلمونها إلا بتعليم الله إياهم، قال ﷺ: «ألا وإني لا أعلم إلا ما علمني الله»[3] .

---

(١) الحج: ٧٥.

(٢) آل عمران.

(٣) ابن خلدون/ عبد الرحمن بن محمد الحضرمي «المقدمة» ص٩١، ط/ دار القلم، ط/ ٥ ـ بيروت ـ سنة ١٩٨٤م، والحديث رواه ابن حبان في «الثقات» ٢/ ٩٤، ت/ السيد شرف الدين أحمد، ط/ دار الفكر، سنة

فالله ﷻ يختارهم ويصطفيهم من بني البشر ليبلغوا عنه رسالته ووحيه إلى المرسلين إليهم، وهم لا يكونون إلا في أعلى درجات البشرية، من الصفات الخِلْقِية والخُلُقِية، فهو ﷻ «يصطفيهم من الخلق فعلاً بكمال الفطرة، ونقاء الجوهر، وصفاء العنصر، وطيب الأخلاق، وكرم الأعراق، فيرقيهم مرتبة مرتبة، حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة، وكملت قوته النفسانية، وتهيأت لقبول الأسرار الإلهية، بعث إليهم ملكاً، وأنزل عليهم كتاباً»[1].

ويطرح الإمام الغزالي هذا السؤال: الرسالة هل هي حظوة مكتسبة أم أثرة ربانية؟ ويجيب قائلاً: «اعلم أن الرسالة أثرة علوية، وخطوة ربانية، وعطية إلهية لا تكتسب بجهد، ولا تنال بكسب، قال ﷻ: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ..﴾[2] ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحًا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ ..﴾[3] لكن الجهد والكسب في إعداد النفس لقبول آثار الوحي بالعبادات المشفوعة بالفكر، والمعاملات الخالصة عن الرؤيا والسمعة من لوازمها، فليس الأمر فيها اتفاقياً جغرافياً حتى يناله

١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م، وابن حجر في فتح الباري ١٣/ ٣٦٤، ت/ محب الدين الخطيب، ط/ دار المعرفة - بيروت - والإصابة في تمييز الصحابة ٢/ ٦١٩، ت/ علي محمد البجاوي، ط/ دار الجيل - بيروت - سنة ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

(١) الشهرستاني «نهاية الإقدام» ص٤٦٢، ٤٦٣، قارن ابن خلدون «المقدمة» ص٩٨.

(٢) الأنعام: ١٢٤.

(٣) الشورى: ٥٢.

كل من دب ودرج، أو مرتبا على جهد وكسب حتى يصيبها كل من فكر وأدلج»[١].

«فلا يشترط في الرسول شرط من الأعراض والأحوال المكتسبة بالرياضات، والمجاهدات في الخلوات والانقطاعات، ولا استعداد ذاتي من صفاء الجوهر، وذكاء الفطرة، بل الله يختص برحمته من يشاء، فالنبوة رحمة وموهبة متعلقة بمشيئة الله فقط»[٢].

قال صاحب الجوهرة:

ولم تكـــن نبـــوة مكتسبة ولو رقي في الخير أعلى عقبـة

بل ذاك فضل الله يؤتيه لمن يـشاء جـــل الله واهـــب المنن[٣]

فلا تصفية النفس، أو التشدد في العبـادة، أو رفعـة الأخـلاق... الخ، مما يصل بالإنسان إلى هذه الدرجة، بل الـوحي والنبـوة محض فضـل واصـطفاء واختيـار، لا بكسب ولا اجتهاد بالغاً ما بلغ، ولا بسمو النفس وارتقائها لكي تتمكن من اتصـالها بالعقل الفعال، فتتلقى منه الوحي، على ما يقوله الفلاسفة.

---

(١) معارج القدس ص١٣٠، قارن ص١٤٣، شرح المواقف الجرجاني/ السيد الشريف علي بن محمد «شرح المواقف» ٨/ ٢٤٢، ت/ محمود عمر الدمياطي، ط/ دار الكتب العلمية ط/ ١، سنة ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

(٢) عبد الرازق/ د. مصطفى «الدين والوحي والإسلام» ص٦٦، مرجع سابق.

(٣) حاشية الإمام البيجوري على جوهرة التوحيد، المسمى: تحفة المريد على جوهرة التوحيد ص٢١١، ٢١٢، ت/ د. علي جمعة، ط/ دار السلام، ط/ ٦، ١٤٣٣هـ – ٢٠١٢م.

المبحث الثاني
أنواع الوحي وكيفية وقوعه

المطلب الأول: أنواع الوحي

تكفل الله ﷻ ببيان الكيفية التي يكلم بها البشر فقال ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾﴾(١)، ففي هذه الآية حصر لأنواع الكلام الإلهي للبشر.

فالوحي نوع من أنواع التكليم، والتكليم من وراء حجاب نوع، وبواسطة رسول نوع آخر، وإذا ألقينا نظرة على ما ذكره المفسرون في تأويل هذه الآية، نجد أنها تبين بجلاء أنه لا يصح لأحد من البشر أن يكلمه الله إلا على أحد ثلاثة أوجه:

الأول: أن يكون عن طريق الوحي، وهو في آية الشورى بمعنى الإلهام والقذف في القلب أو المنام، كما أوحى الله إلى أم موسى وإبراهيم عليه السلام في ذبح ولده، وعن مجاهد أوحى الله ﷻ الزبور إلى داود عليه السلام في صدره.

الثاني: أن يسمعه كلامه من غير واسطة مبلغ، وهذا أيضاً وحي بدليل أنه ﷻ أسمع موسى كلامه من غير واسطة، وقد سماه ﷻ وحياً في قوله: ﴿فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾﴾(٢).

---

(١) الشورى: ٥١.

(٢) طه، وينظر تفاسير: الرازي ٢٧/ ١٦٠، الزمخشري ٤/ ٢٣٧، ٢٣٨، أبو السعود ٨/ ٣٧، الثعلبي «الكشف والبيان» ٨/ ٣٢٦، الشوكاني «فتح القدير» ٤/ ٥٤٤، ٥٤٥، قارن: عمدة القاري ١/ ٤٠.

الثالث: أن يرسل الله رسولاً ملكياً، فيبلغ الوحي إلى الرسول البشري[١].

وطريق الحصر الذي حددته الآية يبين أن وصول الوحي من الله إلى البشر- إما أن يكون من غير واسطة مبلغ، أو يكون بواسطة مبلغ، وإذا كان الأول وهو أن يصل إليه الوحي لا بواسطة شخص آخر، فههنا إما أن يقال: إنه لم يسمع عين كلام الله أو يسمعه، **أما الأول**: وهو أنه وصل إليه الوحي لا بواسطة شخص آخر، وما سمع عين كلام الله، فهو المراد بقوله: (إِلاَّ وَحْياً) **وأما الثاني**: وهو أنه وصل إليه الوحي لا بواسطة شخص آخر، ولكنه سمع عين كلام الله، فهو المراد من قوله: (أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ) **وأما الثالث**: فهو المراد بقوله: (أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاء) وعلى هذا فكل واحد من هذه الأقسام الثلاثة وحي، إلا أنه ﷻ خصص القسم الأول باسم الوحي؛ لأن ما يقع في القلب على سبيل الإلهام يقع دفعة، فكان تخصيص لفظ الوحي به أولى[٢].

وعلى هذا فالتكليم أيضاً وحي، ولكن أطلق الوحي في النوع الأول؛ لأنه الأكثر شيوعاً، ويوحي الله به إلى الأنبياء وغيرهم، بل ويستعمله الخلق فيما بينهم.

«فالوحي قسم من كلام الله العام الذي جاءت به آية الشورى، وهي الآية التي جعلت كلام الله لعباده على ثلاثة أنحاء لا يجاوزها»[٣].

(١) قارن: المختار من كنوز السنة ص ١، ٢.

(٢) ينظر: تفسير الرازي ٢٧/ ١٦٠.

(٣) الدين والوحي والإسلام، للشيخ مصطفى عبد الرازق، ص٥٥، وقد ذهب البعض إلى أن أنواع الوحي إلى النبي ﷺ تصل إلى ستة وأربعين نوعا، ولكن حقق بعض العلماء تلك الأنواع واقتصر فيها على سبعة أنواع أوصلها بعضهم إلى عشر. ينظر: المرجع نفسه ص٦٠: ٦٢.

ومن خلال هذا التقسيم للوحي – والذي استقيناه من ضوء الآية الكريمة التي ألمت بكل أنواع الوحي – ننطلق إلى بيان أنواعه بالتفصيل:

النوع الأول: الوحي المجرد: أي الوحي بالمعنى العام، وهو المراد في قوله ﷻ: (إلا وحياً) ويكون إلى الأنبياء وغيرهم، والمقصود هنا ما جاء في حق الأنبياء فقط؛ حيث نيط بهم البحث، وهذا النوع قسمان:

فأما الأول: فهو الإلهام القلبي، وهو النفث في الروع، أي القذف في القلب، والإِلهام: علم حق يقذفه الله من الغيب في قلوب عباده، كما قال ﷻ: ﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ۝٤٨﴾[1] فالله ﷻ يقذف في روع النبي ﷺ وخلده، ويلهمه إلهاماً، حتى لا يشك أنه من عنده ويقطع به، وهذا الإلهام تكليم ما؛ ولهذا سماه الله ﷻ وحياً، ويكون عن طريق إلقاء الملك الوحي في روع النبي وقلبه، من غير أن يراه[2].

وهذا النوع هو الوارد في قوله ﷺ :«إِن روح القدس نَفَثَ في رُوعي أن نفساً لن

(١) سبأ. وينظر: ملا علي القاري «مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح» ١/ ٤٠٥.

(٢) ينظر: القرطبي/ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح «الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام وإظهار محاسن الإسلام»، ص ٢٣٨، ت/ د: أحمد حجازي السقا، ط/ دار التراث العربي ـ القاهرة ـ ١٣٩٨هـ، ابن القيم «بدائع الفوائد» ٢/ ٣١٢، «زاد المعاد في هدي خير العباد» ١/ ٧٨، ٧٩، ت/ شعيب الأرناؤوط ـ عبدالقادر الأرناؤوط، ط/ مؤسسة الرسالة ـ مكتبة المنار الإسلامية ـ بيروت ـ الكويت ـ ط/ ١٤، سنة ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٦م، الثعالبي « الجواهر الحسان في تفسير القرآن» ٤/ ١١٧، الزرقاني «مناهل العرفان » ١/ ٤٦.

تموتَ حتى تستكملَ رزقها ألا فاتقوا الله وأجملوا في الطلب..» الحديث[١]، ومن ذلك إلقاء الزبور في صدر داود عليه السلام.

القسم الثاني من الوحي المجرد: الرؤيا الصادقة في النوم، وهي أول ما بديء به رسول الله ﷺ من الوحي، كما في حديث بدء الوحي[٢]، قال القاضي الباقلاني رحمه الله وغيره من العلماء: «إنما ابتدىء ﷺ بالرؤيا؛ لئلا يفجأه الملك، ويأتيه صريح النبوة بغتة، فلا يحتملها قوى البشرية، فبدىء بأول خصال النبوة، وتباشير الكرامة من صدق الرؤيا»[٣].

ومن ذلك أيضاً حديث ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «أَتَانِي اللَّيْلَةَ رَبِّي تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ، قال: أَحْسَبُهُ فِي الْمَنَامِ، فقال: يا محمد هل تَدْرِي فِيمَ يَخْتَصِمُ الْمَلَأُ الأعلى؟ قال: قلت لَا، قال: فَوَضَعَ يَدَهُ بين كَتِفَيَّ حتى وَجَدْتُ بَرْدَهَا بين ثَدْيَيَّ ..» الحديث[٤].

فرؤيا الأنبياء لا تكون إلا مناماً صادقاً، يجيء في تحققه ووقوعه كما يجيء فلق الصبح في تبلجه وسطوعه[٥] فهي وحي بيقين؛ لأنها معصومة من الشيطان باتفاق الأمة[٦] ولذا

(١) رواه البزار في مسنده عن حذيفة ٧/ ٣١٥، ح٢٩١٤، عبد الرزاق في مصنفه باب القدر ١١/ ١٢٥، ح٢٠١٠٠، وأبو شيبة في مصنفه ٧/ ٧٩، ح٣٤٣٣٢، والحاكم في مستدركه ٤/ ٣٦١، ح٧٩٢٤، بدون لفظ: «إن روح القدس» وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه».

(٢) سبق إيراده وتخريجه ص١٣٤٦ من البحث.

(٣) الإمام النووي «شرح النووي على صحيح مسلم» ٢/ ١٩٧، ١٩٨.

(٤) رواه الترمذي في كتاب تفسير القرآن عن رسول الله ﷺ، ٥/ ٣٦٦: ٣٩٩، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وأحمد في المسند ١/ ٣٦٨، ح٣٤٨٤، الدارمي في كتاب الرؤيا، باب في رُؤْيَةِ الرَّبِّ تَعَالَى في النَّوْمِ ٢/ ١٧٠، ح٢١٤٩.

(٥) ينظر: مناهل العرفان ١/ ٤٦.

(٦) ينظر: مدارج السالكين ١/ ٥١، تفسير الرازي ٢٦/ ١٣٢، تفسير القرطبي ١٦/ ٥٣.

أقدم إبراهيم الخليل على ذبح ابنه إسماعيل عليهما السلام بالرؤيا، بدلالة قوله ﷻ: ﴿..قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ﴾ إلى قوله: ﴿قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ﴾[١] فلو لم يكن إبراهيم عليه السلام موقناً بأن تلك الرؤيا وحي من ربه، لما طوعت له نفسه قتل ولده الوحيد آنذاك.

والرؤيا الصالحة لغير الأنبياء من **المبشرات**[٢] وهي جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة[٣] ورؤيا المؤمن كما قال عبادة بن الصامت رضي الله عنه كلام يكلم به الرب عبده في المنام، وهي مبدأ الوحي، ويكون صدقها بحسب صدق الرائي، فأصدق الناس رؤيا أصدقهم حديثاً، فمن أراد أن تصدق رؤياه فليتحر الصدق، وإذا تواطأت رؤيا المسلمين لم تكذب، وهي عند اقتراب الزمان لا تكاد تخطيء؛ وذلك لبعد العهد بالنبوة وآثارها، فيتعوض المؤمنون بالرؤيا، وأما في زمن قوة نور النبوة، ففي ظهور نورها وقوته ما يغني عن الرؤيا[٤].

---

(١) الصافات: ١٠٢: ١٠٥، وينظر: مدارج السالكين ١/ ٥١.

(٢) عن هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قال سمعت رَسُولَ اللهَّ ﷺ يقول: «لم يَبْقَ من النُّبُوَّةِ إلا الْمُبَشِّرَاتُ قالوا: وما الْمُبَشِّرَاتُ؟ قال: الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ» رواه البخاري في كتاب التعبير، باب الْمُبَشِّرَاتِ ٦/ ٢٥٦٤، ح٦٥٨٩.

(٣) عن عُبَادَةَ بن الصَّامِتِ رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «رُؤْيَا الْمُؤْمِنِ جُزْءٌ من سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا من النُّبُوَّةِ» رواه البخاري في كتاب التعبير، بَاب الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ جُزْءٌ من سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا من النُّبُوَّةِ ٦/٢٥٦٣، ح٥٦٨٦، ومسلم في كتاب الرؤيا، باب رُؤْيَا الْمُؤْمِنِ جُزْءٌ من سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا من النُّبُوَّةِ ٤/ ١٧٧٣، ح٢٢٦٣. وينظر: ابن تيمية/ أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام الحراني «الرد على المنطقيين» ص٤٨٥، ط/ دار المعرفة - بيروت، بدون.

(٤) ينظر: مدارج السالكين ١/ ٥٠، ٥١.

النوع الثاني: الوحي يقظة بلا واسطة من وراء حجاب

وهذه الدرجة أعلى مراتب الوحي، فبها فضل الله بعض النبيين على بعض، كما قال ﷻ: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ..﴾(١) وهي مرتبة لم يصل إليها إلا بعض الأنبياء، فقد خصَّ ﷻ بتكليمه بعضهم دون بعض، بكلام مسموع بالآذان، معلوم بالقلب، زائد على الوحي الذي يكون بالقلب فقط، أو المنام، مسموع من الملك عن الله ﷻ ومن هذا الوجه خص نبينا ﷺ بالكلام ليلة الإسراء، من المستوى الذي سمع فيه صريف الأقلام، وموسى عليه السلام حيث كلمه ﷻ تكليما(٢).

فأما كلام الله ﷻ لنبينا ﷺ فالدليل عليه قوله ﷻ: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠﴾(٣) قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: «فأوحى إلى عبده محمد ﷺ ما أوحى إليه ربه»(٤) وهذا المعنى هو أحد المعاني الراجحة للآية على ما ذكره المفسرون(٥).

كما ثبت في الصحيحين(١) أنه ﷻ أوحي له ﷺ بلا واسطة في ليلة الإسراء والمعراج،

---

(١) البقرة: ٢٥٣.

(٢) ينظر: ابن حزم «الفصل في الملل والأهواء والنحل» ٢/ ٤٤، ٤٥، قارن: عمدة القاري ١/ ٤٠، زاد المعاد ١/ ٨٠، مدارج السالكين ١/ ٣٧، مناهل العرفان ١/ ٤٦.

(٣) النجم.

(٤) تفسير الطبري ٢٧/ ٤٧، قارن: السيوطي «الدر المنثور» ٧/ ٦٤٦.

(٥) ينظر: تفاسير الرازي ٦/ ١٧٠، ٢٢/ ٢٣، ١٢٧/ ١٦٢، السمرقندي ٣/ ٣٤٠، القرطبي ١٧/ ٩١، السمعاني ٥/ ٢٨٨

حيث فرض عليه وعلى أمته خمسين صلاة، فما زال يراجعه ﷺ وينزل ويصعد إليه بنصيحة موسى عليه السلام حتى جعلها خمساً، وكان الوحي المباشر هنا من وراء حجاب نور الله ﷻ [٢] فعندما سئل ﷺ : هل رأيت ربك؟ قال: « نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ» وفي رواية قال: «رأيت نُورًا»[٣].

فقد كلمه ﷻ من وراء حجاب[٤] وهو ما دلت عليه آية الشورى.

وذهب بعض العلماء إلى أنه ﷺ رأى ربه كفاحاً، أي مواجهة من غير حجاب، واستندوا إلى روايات أخرى لحديث ابن عباس السابق[٥] في رؤية النبي ﷺ لربه مناماً؛ حيث لم تذكر فيها الرؤية بالمنام، ففي رواية للترمذي وغيره «أَتَانِي رَبِّي فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ

---

(١) روى حديث المعراج البخاري في كتاب فضائل الصحابة، باب المعراج ٣/ ١٤١٠، ١٤١١،ح ٣٦٧٤، ومسلم في كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ ١/ ١٤٥،١٤٦، ح١٦٢.

(٢) وذلك قوله ﷺ: «إِنَّ اللهَّ عز وجل لَا يَنَامُ ولا يَنْبَغِي له أَنْ يَنَامَ .. حِجَابُهُ النُّورُ وفي رِوَايَةِ أبي بَكْرٍ النَّارُ لو كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ ما انْتَهَى إليه بَصَرُهُ» رواه مسلم في كتاب الإيمان، بَاب في قَوْلِهِ عليه السلام إِنَّ اللهَّ لَا يَنَامُ وفي قَوْلِهِ حِجَابُهُ النُّورُ.. ١/ ١٦١، ح١٧٩.

(٣) رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب في قَوْلِهِ عليه السَّلَام نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ ١/ ٦١، ح١٧٨

(٤) ويدل عليه قول النبي ﷺ لجابر بن عبد الله {: «إن الله تعالى لا يكلم أحداً إلا من وراء حجاب، وأنه كلم أباك كفاحاً..» رواه الحاكم في المستدرك، كتاب معرفة الصحابة ٣/ ٢٢٤، ح٤٩١٤، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» والترمذي كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة آل عمران ٥/ ٢٣٠، ح٣٠١٠، وابن حبان ١٥/ ٤٩٠، ح٧٠٢٢، ابن ماجه ١/ ٦٨، ح١٩٠.

(٥) سبق تخريجه ص١٣٣٩، وفي حديث جابر أن النبي ﷺ قال له: «ما كَلَّمَ الله أَحَدًا قَطُّ إلا من وَرَاءِ حِجَابٍ وَكَلَّمَ أَبَاكَ كِفَاحًا..» رواه الحاكم في المستدرك كتاب معرفة الصحابة ٣/ ٢٢٤، ح٤٩١٤، ابن ماجه ١/ ٦٨، ح١٩٠، ولكن كيف يختلف العلماء في رؤية النبي ﷺ لربه كفاحاً مع إثباتها لوالد جابر؟، والجواب: «أن الآية مخصوصة بدار الدنيا، فلا يتصور في الدنيا كلام الله تعالى مع عبده مواجهة؛ لأن أجساد الدنيا كثيفة، لا يليق بها التجلي الذاتي؛ لأن الله تعالى لما تجلى للجبل جعله دكاً، وخر موسى صعقاً، وأما في الآخرة فالتجليات تحصل للأرواح، أو للأجساد المثالية لأجساد الجنة» شرح سنن ابن ماجه ١/ ١٧.

فقال: يا محمد قلت: لَبَّيْكَ ربي ..»[١].

وجاء عند أحمد: «أتاني ربي الليلة..»[٢] وهي في مجملها لا تفيد الرؤيا العينية، بل إن لفظة: «الليلة» ترجح الرؤيا المنامية.

ومسألة رؤية النبي لربه موضوع خلاف بين السلف والخلف وجمهور الصحابة، مع عائشة ﵂ كما حكاه الدارمي إجماعاً للصحابة[٣].

النوع الثالث: الوحي بواسطة رسول

وهذا النوع هو الغالب في كيفية تلقي الوحي عن الله ﷻ فيرسل رسول الوحي جبريل ﵇ وهو ملك كريم، ذو قوة عند ذي العرش مكين، مطاع ثم أمين، فيوحي بإذنه ما يشاء الله أن يوحي، وذلك النوع هو أشهر الأنواع وأكثرها، ووحي القرآن كله من هذا القبيل، وهو المصطلح عليه بالوحي الجلي، قال ﷻ: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ

(١) أخرجه الترمذي في السنن، كتاب تفسير القرآن عن النبي ﷺ ٥/ ٣٦٧، ح٣٢٣٤، والدارمي في كتاب الرؤية، بَاب فِي رُؤْيَةِ الرَّبِّ تَعَالَى فِي النَّوْمِ ٢/ ١٧٠، ح٢١٤٩، والطبراني في الكبير ١/ ٣١٧ ، ح٩٣٨، مسند أبي يعلى ٤/ ٤٧٥، ح٢٦٠٨، ومعنى أحسن صورة: أحسن صفاته معه في إنعامه عليه ﷺ، والإقبال والإفضال إليه والإجلال، ابن فورك «مشكل الحديث وبيانه» ١/ ٧١.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٤/ ٦٦، ح١٦٦٧٢، ٥/ ٣٧٨ ، ح٢٣٢٥٨.

(٣) ينظر: زاد المعاد ١/ ٨٠، والدارمي: أبو سعيد عثمان بن سعيد بن خالد بن سعيد السجستانى الحافظ، ولد سنة ٢٠٠هـ، كان إماماً في الحديث والفقه والأدب، أخذ الأدب عن ابن الأعرابي، والفقه عن البويطي، والحديث عن أحمد بن حنبل، وعلى بن المديني، وإسحاق بن راهويه، ويحيى بن معين، له كتب في الرد على الجهمية، وبشر المريسى، وله مسند كبير في الحديث، توفى بهراة في ذي الحجة سنة ٢٨٠هـ. ينظر: تاج الدين السبكي «طبقات الشافعية الكبرى» ٢/ ٣٠٢: ٣٠٤، الزركلي «الأعلام» ٤/ ٢٠٥، ٢٠٦.

﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾[1]

والوحي بواسطة الملك له صور ثلاث:

الصورة الأولى: أن يرى النبي الملك على صورته الأصلية التي خلقه الله عليها، ويتعلم منه ما جاء به إليه، وفي هذه الحالة يخلق الله ﷻ للنبي استعداداً خاصاً به يفهم كلام الملك، وقد وقع هذا لنبينا ﷺ مرتين[2] مرة في الأرض، ومرة في السماء، فأما الأولى: فكانت عندما فتر الوحي عنه ﷺ بعد أن جاءه الملك أول مرة بحراء، فقد جاء في الصحيحين أن جابر بن عبد الله ﵄ قال: قال رسول الله ﷺ وهو يحدث عن فَتْرَةِ الْوَحْيِ: «فَبَيْنَا أنا أَمْشِي سمعت صَوْتًا من السَّمَاءِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي فإذا الْمَلَكُ الذي جَاءَنِي بِحِرَاءٍ جَالِسًا على كُرْسِيٍّ بين السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَرُعِبْتُ منه فَرَجَعْتُ..»[3].

وأما الثانية فكانت في ليلة المعراج، فعن ابن مسعود ﵁: «أَنَّ النبي ﷺ رَأَى جِبْرِيلَ له ستمائة جَنَاحٍ»[4] وقالت أم المؤمنين عائشة ﵂ في قوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ رَءَاه نَزْلَةً

(١) الشعراء، وينظر: مناهل العرفان ١/ ٤٦، ٤٧.

(٢) ينظر: زاد المعاد ١/ ٨٠، مدارج السالكين ١/ ٣٩، عمدة القاري ١/ ٤٠، مناهل العرفان ١/ ٤٧، أصول العقيدة الإسلامية ص٢١٦، دراسات في العقيدة الإسلامية ص١٢٠.

(٣) البخاري في باب كَيْفَ كان بَدْءُ الْوَحْيِ إلى رسول الله ﷺ ١/ ٥،ح٤، ومسلم في كتاب الإيمان، باب بدء الوحي ١/ ١٤٣، ح١٦٠.

(٤) رواه البخاري في كتاب بدء الخلق، بَاب إذا قال أحدكم آمِينَ وَالْمَلَائِكَةُ في السَّمَاءِ فَوَافَقَتْ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى غُفِرَ له ما تَقَدَّمَ من ذَنْبِهِ ٣/ ١١٨١، ح٣٠٦٠، مسلم في كتاب الإيمان، بَاب في ذِكْرِ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ١/ ١٥٨، ح١٧٤.

أُخۡرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾﴾[١]: ذاك جبريل كان يَأْتِيهِ في صُورَةِ الرَّجُلِ وَإِنَّهُ أَتَاهُ هذه الْمَرَّةَ في صُورَتِهِ التي هِيَ صُورَتُهُ فَسَدَّ الْأُفُقَ»[٢]، وإلى هذا ذهب ابن مسعود، وابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وعلقمة، وقرة ابن شراحيل رضي الله عنهم وأكثر أهل التفسير[٣].

الصورة الثانية: أن يتمثل الملك للرسول البشرى رجلاً، يراه عياناً، فيخاطبه حتى يعي عنه ما يقول له، فعن عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رضي الله عنها أَنَّ الْحَارِثَ بن هِشَامٍ رضي الله عنه سَأَلَ رَسُولَ اللهَّ ﷺ فقال: «يا رَسُولَ اللهَّ كَيْفَ يَأْتِيكَ الْوَحْيُ؟ فقال رسول اللهَّ ﷺ .. وَأَحْيَانًا يَتَمَثَّلُ لي الْمَلَكُ رَجُلًا فَيُكَلِّمُنِي فَأَعِي ما يقول ..»[٤].

فقد كان جبريل عليه السلام يأتي النبي ﷺ في صورة الصحابي الجليل دحية الكلبي رضي الله عنه قال العيني: «اختصاص تمثله بصورة دحية دون غيره من الصحابة؛ لكونه أحسن أهل زمانه صورة؛ ولهذا كان يمشي متلثماً خوفاً أن يفتتن به النساء»[٥].

وفي أحيان أخرى كان يتمثل في صورة رجل لا يعرفونه، كما في حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رسول اللهَّ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعَرِ، لَا يُرَى عليه أَثَرُ السَّفَرِ، ولا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ..» إلى أن قال:

---

(١) النجم.

(٢) رواه البخاري في كتاب بدء الخلق السابق، الباب نفسه، الصفحة نفسها، ح٣٠٦٣.

(٣) ينظر: تفسير القرطبي١٩/ ٢٤١، السمعاني ٥/ ٢٨٥، زاد المسير ٨/ ٦٥، الدر المنثور ٨/ ٤٣٤.

(٤) رواه البخاري في باب كَيْفَ كان بَدْءُ الْوَحْيِ إلى رسول اللهَّ ﷺ ١/ ٤،ح٢، مسلم في كتاب الفضائل، بَاب عَرَقِ النبي ﷺ في الْبَرْدِ وَحِينَ يَأْتِيهِ الْوَحْيُ ٤/ ١٨١٦، ح٢٢٣٣، واللفظ للبخاري، وينظر: زاد المعاد ١/ ٧٩، مدارج السالكين ١/ ٣٩، مناهل العرفان ١/ ٤٧.

(٥) ينظر: عمدة القاري ١/ ٤٠.

«.. يا عُمَرُ أَتَدْرِي من السَّائِلُ؟ قلت: الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قال: فإنه جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينكُمْ»[١] وأمثال هذا في السنة كثير.

الصورة الثالثة: أن يهبط الوحي على الرسول خفية فلا يرى، ولكن يظهر أثر التغير والانفعال على صاحب الرسالة فيغط غطيط النائم، ويغيب غيبة كأنها غشية أو إغماء، وما هي في شيء من الغشية والإغماء، إن هي إلا استغراق في لقاء الملك الروحاني، وانخلاع عن حالته البشرية العادية، فيؤثر ذلك على الجسم، فيغط ويثقل ثقلاً شديداً، قد يتصبب منه الجبين عرقاً في اليوم الشديد البرد[٢].

فقد كان الوحي يأتي للنبي في مثل صلصلة الجرس، إذا صلصل في أذن سامعه، وهذه الصورة هي أشد صور الوحي عليه ﷺ ففي حديث عائشة ﵂ السابق سئل ﷺ: كيف يأتيك الوحي؟ قال: «أَحْيَانًا يَأْتِينِي مِثْلَ صَلْصَلَةِ الجَرَسِ وهو أَشَدُّهُ عَلَيَّ فَيُفْصَمُ عَنِّي وقد وَعَيْتُ عنه ما قال ..» فكان الملك يتلبس به، فيتفصد جبينه عرقاً في اليوم الشديد البرد، حتى إن راحلته لتبرك به إلى الأرض إذا كان راكبها، ولقد جاءه الوحي مرة، وفخذه على فخذ زيد بن ثابت ﵁ فثقلت عليه، حتى كادت ترضها[٣].

وكذلك يأتيه الوحي ﷺ ويسمع له الحاضرون دوياً كدوي النحل، لكنهم لا

---

(١) رواه مسلم، كتاب الإيمان، بَاب بَيَانِ الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ وَالْإِحْسَانِ ١/ ٣٧، ح٨.

(٢) ينظر: مناهل العرفان ١/ ٤٧.

(٣) ينظر: مسند الإمام أحمد ٥/ ١٨٤، سنن البيهقي الكبرى ٩/ ٢٣، عمدة القاري ١/ ٤٠، زاد المعاد ١/ ٧٩، ٨٠، ومعنى يفصم عني: يقلع عني، ومعنى ترضها: رض الشيء رضاً: كسره ودقه. ينظر: القاموس المحيط ١/ ٨٢٩، ١٤٧٨، لسان العرب ٧/ ١٥٤، ١٢/ ٤٥٣.

يفقهون كلاماً ولا حديثاً[١] فقد جاء عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه قال: « كان إذا أنزل على رسول الله ﷺ الوحي نسمع عند وجهه كدوي النحل»[٢].

أما هو ﷺ فإنه يسمع ويعي ما يوحى إليه ويعلم علماً ضرورياً أن هذا هو وحي الله دون لبس ولا خفاء، ومن غير شك ولا ارتياب، فإذا انجلى عنه الوحي وجد ما أوحي إليه حاضراً في ذاكرته، منتقشاً في حافظته، كأنما كتب في قلبه كتابةً[٣].

وبعد بيان أنواع الوحي تتبين الحقائق التالية:

١ – أن أكثر ما أوحى إلى الرسول ﷺ على الصورتين الأخيرتين كان على لسان جبريل عليه السلام[٤] يليه الإلهام في القلب يقظة أو مناماً، أما باقي الأنواع والصور فإنما وقعت على الندور.

٢ – نزول القرآن الكريم على نبينا ﷺ كان بواسطة أمين الوحي جبريل عليه السلام فقط، بسماع صوت كدوي النحل، يليه التمثل برجل، يليهما مجيئه بصورته الحقيقية.

٣ – أن نبينا ﷺ قد أوحي إليه من جميع الطرق[٥] فقد خوطب بكل صور الوحي بخلاف غيره من الأنبياء، التي قُصِرَ فيها الوحي على بعض صوره دون جميعها.

٤ – أن النبي ﷺ بدئ أولاً بالرؤيا الصادقة، ورؤيا الأنبياء وحي معصوم كما قال

(١) قارن: مقدمة ابن خلدون ص ٩٢، ٩٨.

(٢) رواه أحمد ١/ ٣٤، ح٢٢٣، والترمذي في كِتَاب الْقِرَاءَاتِ عن رسول اللهِ ﷺ بَاب وَمِنْ سُورَةِ الْمُؤْمِنُونَ٥/ ٣٢٦، ح٣١٧٣، النسائي١/ ٤٥٠، ح١٤٣٩، الحاكم١/ ٧١٧، ح١٩٦١، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٣) ينظر: مناهل العرفان ١/ ٤٧.

(٤) قارن: عمدة القاري ١/ ٤٠.

(٥) قارن: درء تعارض العقل والنقل، ١٠/ ٢١٣.

ابن عباس، وعبيد بن عمير وغيرهما، ثم إنه ﷺ نقل من درجة إلى درجة، حتى جاءه الملك فخاطبه بالكلام، فأحياناً يأتيه في الباطن فيكلمه، وأحياناً يتمثل له في صورة رجل، ثم عرج به ليلة الإسراء[١].

٥ - أن الوحي الصريح هو ما كان عن طريق سماع كلام الله ﷻ بحاسة الأذن، ومشاهدة الملك بحاسة البصر، وسماع كلام الملك، وقد جعل العلماء هذين النوعين أتم وأكمل من الرؤيا في النوم، وأكمل من الإلهام «فالإلهام: وجدان تستيقنه النفس، وتنساق إلي ما يطلب، على غير شعور منها من أين أتى»[٢] وذلك لأن الأخيرين مما يشترك فيه الأنبياء وغيرهم من الصديقين والأولياء، إلا أن الفرق بين الإلهامين أن إلهام الأنبياء متيقن أنه من عند الله، أما إلهام الأولياء فلا يتيقن فيه ذلك[٣].

٦ - أن التكليم بغير واسطة لم يقع لغير الأنبياء، والجزم فيه بنفي أو إثبات موقوف على الدليل[٤] ولم يثبت.

٧ - رؤية جبريل عليه السلام على صورته الحقيقية لم تقع لنبي إلا لخاتمهم ﷺ تعظيماً لشأنه ﷺ في جملة ما رأى من آيات ربه الكبرى.

---

(١) المصدر السابق ١/ ٤٨٦.

(٢) رسالة التوحيد ص ٥٧.

(٣) ينظر: الصافي/ د: محيي الدين أحمد، جوهري/ د: محمد ربيع محمد «العقيدة الإسلامية والأخلاق» ص١١٦، الناشر/ دار الطباعة الحديثة ـ القاهرة ـ ط/ ١، سنة ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م.

(٤) قارن: مدارج السالكين ١/ ٤٦.

المطلب الثاني: كيفية وقوعه

يوحي الله ﷻ بأمره وحكمه إلى رسول الوحي ما يوحي، أو إلى بعض الملائكة مباشرة[١] فيسمعه أهل السماء، وينزل على الأنبياء فيوقنون أنه من عند الله.

فما وقْع تلقيه ونزوله وكيفية سماعه؟

أما أهل السماء فيحكي لنا رسول الله ﷺ كيفية سماعهم للوحي فيقول: «إذا تكلم الله تعالى بالوحي، سمع أهل السماء للسماء صلصلة كجر السلسلة على الصفا فيصعقون، فلا يزالون حتى يأتيهم جبريل ﵇ فإذا جاءهم جبريل فزع عن قلوبهم، فيقولون يا جبريل: ماذا قال ربكم، فيقول: الحق، فينادُون الحق الحق»[٢] فهل يعني هذا أن صوت الوحي كصوت جر السلسلة على الصفا؟ الحق أن هذا ليس صوت الوحي، وإنما صوت أجنحة الملائكة عند سماعهم للوحي، يدل عليه حديث البخاري وغيره عن أبي هريرة ﵁ أن نبي الله ﷺ قال: «إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله كأنه سلسلة على صفوان..»[٣].

فالملائكة تسمع صوت الوحي كضرب سلسلة من حديد على حجر أملس، فتأخذها رعدة أو رجفة، خوفاً من الجليل ﷻ مما يقودها لضرب أجنحتها بقوة.

وفي بعض الروايات أن الله ﷻ إذا أراد أن يتكلم بالوحي فإن الملائكة تصعق وتخر

---

(١) قال ﷻ: ﴿إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ ..﴾ [الأنفال: ١٢].

(٢) رواه البخاري في خلق أفعال العباد ص٤٠، ت/ د/ عبد الرحمن عميرة، ط/ دار المعارف ـ الرياض، سنة ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م.

(٣) البخاري في كتاب التفسير، بَاب قوله حتى إذا فُزِّعَ عن قُلُوبِهِمْ ٤/ ١٨٠٤، ح٤٥٢٢.

لله سجداً[١] قال بعض العلماء: والمعنى أن الله ﷻ إذا تكلم بالوحي أرعد أهل السماوات من الهيبة، فيلحقهم كالغشي، فإذا جلى عن قلوبهم سأل بعضهم بعضاً: ماذا قال ربكم قالوا: القول الحق، أي المطابق للواقع، فيخبر بعضهم بعضاً بما قال الله تعالى من غير زيادة ونقصان[٢].

ولا منافاة بين الروايات؛ فتشير الأولى والثانية إلى ما بعد إلقاء الوحي، وتبين الأخيرة وصفهم حال التكلم بالوحي.

وعلى كلٍ فالبيان جاء بكيفية التلقي ووقع النزول لا بكيفية كلامه ﷻ وكونه بصوت وحرف أو غيره، فالكيفية ممتنعة؛ إذ إنه ﷻ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ.. ﴾[٣] في ذاته وصفاته وأفعاله.

ومن هنا .. فإن صوت الوحي: هيئة بها يعرف الموحى إليهم مراد الله ﷻ وأقول الموحى إليهم فقط؛ لأن غيرهم ممن سمع الصوت - من الملائكة - لم يعرف مراد الله، ولا فهم معنى ما يلقى إلا بعد إخبار جبريل عليه السلام لهم بأنه الحق.

وأما وقع الوحي على النبي ﷺ: فقد ورد في الصحيحين أن الوحي كان يأتي نبينا ﷺ

---

(١) قال ﷺ: «إذا أراد الله أن يوحى بأمره تكلم بالوحي، وإذا تكلم بالوحي أخذت السماوات رجفة، أو قال رعدة شديدة خوفاً من الله ﷻ فإذا سمع بذلك أهل السماوات صعقوا..» كنز العمال ٢/ ١٧، وذكره البيهقي في الأسماء والصفات ص٢٣٠، ٢٣١، وفي بعض رجاله كلام.

(٢) ينظر: العظيم أبادي/ محمد شمس الحق «عون المعبود على سنن أبي داود » ١٣/ ٤٨، ط/ دار الكتب العلمية، بيروت ـ ط/ ٢، سنة ١٩٩٥م.

(٣) الشورى: ١١.

في مثل صلصلة الجرس، وهو أشده عليه ﷺ[١] والصلصلة: صوت الحديد فيما له طنين، وقيل: قوة صوت حفيف أجنحة الملائكة؛ لتشغله عن غير ذلك، ويؤيده رواية (كأنه سلسلة على صفوان) أي حفيف الأجنحة[٢].

فهو صوت متدارك يسمعه الرسول، ولا يتبينه أول ما يسمعه حتى يفهمه بعد، والحكمة في تقدمه أن يقرع سمعه الوحي، فلا يبقى فيه متسع لغيره[٣].

فهنا أيضاً كيفية سماع صوت الوحي ممتنعة، بيد أن النبي ﷺ مثل لسماعه بالصلصلة، وهو مجرد تمثيل لا حقيقة؛ لأن الحقيقة تنبو عن الأفهام، وتكل عنها أحلام الأنام، ولا تنجلي إلا بعد إلقاء الوحي وتجليه للنبي تجلياً لا يبقى معه شك أنه من عند منزل الوحي سبحانه وتعالى.

وكلام الله للنبي لا يمكن أن يكون بحرف أو صوت محسوس أما سماعه صوت الملك فيحتمل أن يكون بحرف وصوت دال على معنى كلام الله سبحانه وتعالى فالمسموع الأصوات الحادثة، وهي فعل الملك دون نفس الكلام، ولا يكون هذا سماعاً لكلام الله تعالى من غير واسطة، وإن كان يطلق عليه أنه سماع كلام الله تعالى، وسماع الأمة من الرسول ﷺ كسماع الرسول من الملك، وطريق الفهم فيه

(١) سبق تخريجه ص١٣٤٦، من البحث.

(٢) ينظر: فتح الباري ١/ ٢٠، عمدة القاري ١/ ٤٠، ٤١.

(٣) ينظر: «تحفة الأحوذي» ١٠/ ٧٩، وهذا القسم أشد أقسامه على فهم المقصود؛ لأن الفهم منه أشكل من الفهم من الكلام بالتخاطب المعهود ،وفائدة هذه الشدة: ما يترتب على المشقة من زيادة الزلفى، ورفع الدرجات. ينظر: المصدر السابق، قال ابن حجر: «وإنما كان شديداً عليه؛ ليستجمع قلبه، فيكون أوعى لما سمع» فتح الباري ١/ ٢٠.

تقديم المعرفة بوضع اللغة التي تقع بها المخاطبة(١).

وقد تمثل سماع النبي ﷺ للوحي في صورة أخرى، فقد جاء عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: « كان إذا أنزل على رسول الله ﷺ الوحي نسمع عند وجهه كدوي النحل»(٢) والدوي صوت لا يفهم منه شيء، وهذاالصوت هو صوت جبريل عليه السلام يبلغ إلى رسول الله ﷺ الوحي، ولا يفهم الحاضرون من صوته شيئاً، فكان يُسمع من جانب وجهه وجهته صوت خفي، وكان الوحي يؤثر فيهم، وينكشف لهم انكشافاً غير تام، فصاروا كمن يسمع دوي صوت ولا يفهمه، أو أراد ما سمعوه من غطيطه، وشدة تنفسه عند نزول الوحي(٣).

ولا منافاة بين هذه والصورة الأولى، فدوي النحل لا يعارض صلصلة الجرس؛ لأن سماع الدوى كان بالنسبة إلى الحاضرين، فعمر رضي الله عنه شبهه بدوى النحل عندما سمعه، أما الصلصلة فهي بالنسبة إلى النبي ﷺ فقد شبه الوحي عندما يأتيه بصلصلة الجرس(٤).

وقد فرق ابن خلدون بين الصورتين الأخيرتين، وبين تمثل الملك رجلا – وجعلهما ضابطاً للتفرقة بين النبي والرسول – بقوله: واعلم أن الأولى وهي حالة الدوي (وكذلك

---

(١) ينظر الغزالي/ الإمام أبو حامد محمد بن محمد «المستصفى من علم الأصول» ١/ ١٨٥، ت/ محمد عبد السلام عبد الشافي، ط/ دار الكتب العلمية، ط/ ١ ـ بيروت ـ سنة ١٤١٣هـ، قارن: عمدة القاري ١/ ٤٥، المختار من كنوز السنة ص٢.

(٢) سبق تخريجه ص١٣٤٧، من البحث.

(٣) ينظر: القاري/ علي بن سلطان محمد «مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح» ٥/ ٤٠٢، ت/ جمال عيتاني، ط/ دار الكتب العلمية، ط/ ١ـ لبنان/ بيروت ـ سنة ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م، تحفة الأحوذي ٩/ ١٣، قارن: مقدمة ابن خلدون ص٩٢، ٩٨.

(٤) ينظر: فتح الباري ١/ ١٩، عمدة القاري ١/ ٤٤، شرح الزرقاني على الموطأ ٢/ ٢٠.

الصلصلة) هي رتبة الأنبياء غير المرسلين على ما حققوه، والثانية وهي حالة تمثل الملك رجلاً يخاطب، هي رتبة الأنبياء المرسلين؛ ولذلك كانت أكمل من الأولى، مع أنها أشد..

وعلل ذلك بأن الأولى هي مبدأ الخروج في ذلك الاتصال من القوة إلى الفعل، فيعسر بعض العسر؛ ولذلك لما عاج فيها - أي: اعتمد فيها - على المدارك البشرية اختصت بالسمع، وصعب ما سواه، وعندما يتكرر الوحي ويكثر التلقي يسهل ذلك الاتصال، فعند ما يعرج إلى المدارك البشرية يأتي على جميعها، وخصوصًا الأوضح منها وهو إدراك البصر[1].

ووقوع الوحي على هذه الهيئات يؤكد إمكانه العقلي، ووقوعه الفعلي الأمر الذي نفاه المنكرون له، وبعضهم نفى بعض صوره دون بعض، مفرقًا بين أنواعه بحسب توهمه، لا بحسب وقوعه.

(١) مقدمة ابن خلدون، ص٩٨، ٩٩.

المبحث الثالث
شبه المنكرين للوحي والرد عليهم

تمهيد:

تعددت صور الوحي إلى نبينا ﷺ ولكن يظل وحي القرآن شوكة في حلوقهم؛ لكونه باقيًا إلى اليوم، ومن ثم كان الإنكار منصبًا عليه فبه تثبت شتى صور الوحي، وكل رسالات السماء، وبنفيه ونقضه، ينهدم الدين من قواعده وأسسه.

إن القرآن العظيم هو وحي الله ﷻ إلى نبيه الكريم ﷺ ولم يكن من عنديات نفسه، فليس باستطاعته، ولا في قدرة أحد من إنس أو جن، الإتيان ولو بسورة من مثله، وعلى الرغم من هذا البيان القاطع، واليقين الثابت لنزول الوحي على قلب حبيبنا ﷺ إلا أن المنكرين له تمسكوا ببعض الشبهات التي تتعلق بكونه ممكناً على النحو الذي جاء به، وهذه الشبه بعضها قديم، وبعضها حديث ألبس من الثوب القديم أسمالاً[1] بالية لا تكاد تستر عوارها وخبثها فالمنكرون في كل عصر متشابهون؛ لأنهم يستقون من معين واحد، ونتناول في المطلبين شبه القدماء والمحدثين.

المطلب الأول: شبه المنكرين قديما والرد عليهم

عرض الشيخ محمد رشيد رضا لهذه الشبه باستفاضة، كما أسهب وأطنب في الرد عليها، وتتلخص هذه الشبه في أنه أخذ عن بحيرى الراهب الذي لقيه ﷺ في «بُصرى» بالشام، وكذلك أخذ عن «ورقة بن نوفل» عم السيدة خديجة ﵂ وأمثاله من الحنفاء، ومن تدين بدين النصارى مثل: «قس بن ساعدة الأيادي» و «أمية بن الصلت»، وأنه لحرمانه ﷺ من التعليم الذي حظي به أبناء الطبقة العليا من قريش، وبعده عن مجامعهم

---

(١) سمل الثوب يسمل سمولا أسمل: أخلق. لسان العرب، ١١/ ٣٤٥، فالأسمال: أثواب خلقة بالية.

اللهوية والعبثية، شغفت نفسه أن ترى وتسمع وتعرف، فزادها هذا طموحاً إلى نور الحياة المتجلي في جميع مظاهرها؛ لاستكناه ما تدل عليه.

وكذا ما أحدثه موت أبنائه تباعاً من أثر في نفسه حتى توسلت زوجه السيدة خديجة إلى الأصنام بالقرابين؛ لينقذوها من مصيبة الثكل، مما زعزع إيمانها وبعلها بعبادتها بتأثير النصرانية في مكة وغيرها، واعتمال كل ذلك في نفسه، مما دعاه إلى عزوفه عن قومه وتبتله في غار حراء، حتى أتاه آت السماء[1].

هذه خلاصة الشبهات التي اختلقوها في القديم ليقضوا بها أربهم، في نبوته ﷺ.

ومن الممكن الرد على تلك الشبهات على سبيل الإيجاز:

فقصة بحيرى الراهب التي وردت في السيرة النبوية[2] وفي بعض الروايات الضعيفة، ليس فيها أنه ﷺ سمع من بحيرى شيئاً من عقيدته أو دينه، بل فيها أنه لما خرج مع عمه أبي طالب إلى الشام وهو ابن تسع سنين، وقيل اثنتا عشرة سنة، رآه هذا الراهب والسحابة تظله من الشمس، فنصح عمه برعايته جيداً؛ لأنه سيكون له شأن، وحذره عليه من اليهود[3].

فأي تلقي يتلقاه صبي عن راهب في رحلة استضاف فيها قوماً في قافلة لعدة ساعات، أو أيام وليالي معدودة، ولم يسافر بعدها إلى الشام إلا مرة واحدة في تجارة لخديجة؟ وفي المرتين لم يتجاوز سوق بُصرى ، ولم تكن هذه القوافل تُعنى بشيء من

(١) ينظر: الوحي المحمدي ص٤٩: ٥٦، باختصار.

(٢) وردت هذه القصة في بعض كتب السيرة وليس فيها شيء مما يدعون. ينظر: سيرة ابن إسحاق» ٢/ ٥٣: ٥٥.

(٣) ينظر: المرجع السابق، ٢/ ٥٥، الوحي المحمدي ص٤٩.

المعارف، أو لقاء أحبار النصارى ومباحثتهم في دينهم وكتبهم[١].

وأما ورقة - وكان شيخاً قد عمي - فلم ينقل أن النبي ﷺ قد لقيه قبل نزول الوحي عليه، وأن السيدة خديجة رضي الله عنها عند أول نزول للوحي ذهبت به إليه، فطمأنه بأن هذا هو الناموس الذي نزل على موسى[٢]، وأنه ناصره إذا ما أخرجه قومه، ثم لم يلبث ورقة أن توفي، وأما «قس» فقد مات قبل البعثة، ولم ينقل أنه أخذ عنه شيئاً[٣] وأما «أمية» فقد كان على الحنيفية لم يتنصر، وكان على علم بقرب خروج نبي آخر الزمان، فلما بعث ﷺ حسده فلم يسلم، وكان له شعر يمدح فيه الحنيفية، ومن قوله:

كل دين يوم القيامة عند اللـ ـه إلا دين الحنيفية زور

فقال ﷺ: أسلم شعره، وكفر قلبه[٤].

وأما ما ذكروه من تأثره بأحوال أهل مكة وشبابها فمن مخترعات الخيال ومبتدعات الرأي، ألبس حلة من طراز البيان؛ فلم يكن في مكة أروقة أو مدارس للتعليم حتى يقال إنه حرم منها، وهو ﷺ لم يكن شغوفاً بشيء مما عليه فتيان قريش، وقد ثبت أنه لم يحضر سمرهم ولهوهم إلا مرتين، ألقى الله عليه فيهما النوم حتى طلعت الشمس، فلم ير أو يسمع شيئاً.

---

(١) ينظر: الوحي المحمدي ص٥٣.

(٢) ورد ذلك في صحيح البخاري، باب كَيْفَ كان بَدْءُ الْوَحْيِ إلى رسول اللهِّ ﷺ ١/ ٤، ح٣، وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، بَاب بَدْءِ الْوَحْيِ إلى رسول اللهِّ ﷺ ١/ ١٤١، ح١٦٠.

(٣) ينظر أخبار قس عند: ابن حجر العسقلاني «الإصابة في تمييز الصحابة» ٥/ ٥٥١.

(٤) ينظر: الوحي المحمدي ص٥٠، ٥١، وخبر أمية في: الإصابة ١/ ٢٥١، المناوي/ عبدالرؤوف «فيض القدير شرح الجامع الصغير» ١/ ٥٧: ٥٩، ط/ المكتبة التجارية الكبرى ـ مصر ـ ط/ ١، سنة ١٣٥٦هـ.

وأما جزعه: فإنه ﷺ لم يجزع عند موت ولده ولا غيره، بل كان أصبر الصابرين، وكذا زوجه خديجة رضي الله عنها فلم تنحر شيئاً للأصنام، بل إن ضعف الوثنية ـ بسبب النصرانية على زعمهم ـ جدير بأن يمنعها عن ذلك، فضلاً عن رجاحة عقلها، وبغض بعلها لما اعتاد عليه قومه واعتقدوا[١].

وأما حديث الغار: فإن الروايات تفيد أنه ﷺ حبب إليه الخلاء في الغار[٢] في العام الذي أوحي إليه فيه، وما ذكر من أنه تعبد فيه في شهر رمضان، فمحمول على أنه كان في زمن فترة الوحي، ولم يكن في أعوام وشهور قبله، وأما القول بأنه كان يتوسل بذلك إلى ما اشتد إليه شوقه من المعرفة، وابتغاء الإلهام مما في الكون من أسبابها، فلم يروعنه ﷺ أنه كان يقصد ذلك ويبتغيه، ويستعد به للنبوة ؛ لأنه لو كان كذلك لاعتقد حين رأى الملك أنه قد حصل على مأموله ورجائه ولم يخف منه على نفسه، ولم يرو عن أصحابه وأترابه شيئاً مما ذكر، وقد كانوا يعرفون من سيرته الطاهرة أموراً هي أدق وأخفى من ذلك[٣].

ولكنه هوى نفوس أصابها العطن، وأحلام كاذبة، وأماني خداعات، لا قضايا دينية أو حتى تاريخية ثابتة، والدعاوى الباطلة ظاهرة للعيان مهما ألبست من أثواب مزركشة.

لقد كان الوحي يأتيه على الصورة الواردة في القرآن والسنة ليس فيها شيء من هذه الترهات، وما كان للنبي من علم بشيء منه إلا بما أعلمه ربه عز وجل.

---

(١) ينظر: الوحي المحمدي ص٥٢: ٥٥.

(٢) ينظر: حديث البخاري ومسلم السابق ص٤١، مع فتح الباري ١/ ٢٣، ٨/ ٧١٧.

(٣) ينظر: الوحي المحمدي ص٥٦، ٧٦.

المطلب الثاني: شبه المنكرين حديثا والرد عليهم

«أشد ما ترتطم به عقول المعاصرين من الشبهات العلمية مسألة الوحي، فيستبعدون أن الله قد أوحى إلى رجال منهم ليحملوا إلى الناس من التعاليم ما يقيمهم على الصراط السوي في حياتهم الدنيا، وما يفيدهم من العبادات في حياتهم الأخرى»[١].

ولقد أثار المنكرون في العصر الحديث بعض الشبهات التي تتعلق بالوحي إلى نبينا ﷺ، ولنكتفي منها بشبهتين هما أصل لأي شبهات أثيرت، أو قد تثار فيها بعد.

الشبهة الأولى: دعوى الوحي النفسي[٢]: دأب فريق من الغربيين، وأضرابهم من المستشرقين على تفسير الوحي إلى النبي ﷺ على معان فاسدة، وأهواء باطلة، ففسره بعضهم بالوحي النفسي وهو الإلهام الفائض من استعداد النفس العالية كغيره من البشر ممن لديهم هذا الاستعداد.

وصوره بعضهم ممن لا يؤمنون بعالم الغيب واتصال عالم الشهادة به بأن معلوماته وأفكاره وآماله ولدت له إلهاماً فاض من عقله الباطن، أو نفسه الخفية الروحانية العالية

---

(١) وجدي/ محمد فريد «الإسلام دين عام خالد» ص١١، مطبعة دائرة معارف القرن العشرين، ط/ ١، ١٣٥١هـ - ١٩٣٢م.

(٢) هذه هي النظرية الجديدة التي أتحفنا بها الملحدون اليوم ظانين أنهم قد أتوا بما لم يستطعه الأوائل، وما هو بذاك، ولكنه الرأي الجاهلي القديم الذي صور النبي بأنه ذو خيال واسع، وإحساس عميق فهو إذاً شاعر، ويصفونه أحياناً بالجنون، أو بأنه يأتيه رئي من الجن .. إلى غير ذلك، فهي هي الأفكار بذاتها تلبس ثوباً جديداً باسم العلم، تستخفي به عن سقائها من الجاهلية الأولى ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ﴾ [البقرة: ١١٨]، ينظر: دراز/ د. محمد عبد الله «النبأ العظيم» هامش ص٩٧، تقديم: د. عبد العظيم المطعني، ت/ أحمد مصطفى فضلية، ط/ دار القلم – الكويت، الناشر/ دار القلم – القاهرة – ط/ ٩، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.

على مخيلته السامية، وانعكس اعتقاده على بصره فرأى الملك ماثلاً له وعلى سمعه، فوعى ما حدثه به الملك ، فصار الخلاف بيننا وبينهم في كون الوحي الشرعي من خارج نفس النبي، نازلاً عليها من السماء كما نعتقد، لا من داخلها فائضاً منه كما يظنون، وفي وجود ملك روحاني مستقل، أنزله رب العزة ﷻ كما قال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾[1] وفي تخيل الملك في زعمهم[2].

لقد أمالت بهم سماديرهم[3] فأمّلوا أنه كان غائباً عن الوعي غارقاً في خياله، مما أثمر انبثاق الوحي العالي من نفسه وتجليه لبصره وسمعه، وأن الظروف والأحوال التي تعرض لها في حياته، كانت ذات أثر عميق في توجهه وجهة روحية، أفضت به إلى الوحدة والعزلة والتأمل والتماس الحقيقة العليا، واختراق شغاف الحجب إلى إدراك مكنون سر الكون، حتى وجد بغيته في غار حراء، فجعل يقضي الليالي والأيام الطوال جاثياً فيه إلى أن أتاه ما كان يرجوه من نزول الوحي عليه[4].

ومن الغريب أن بعض المستشرقين[5]، رفض بعض أنواع الوحي، وارتضى البعض الآخر، وما ذلك إلا لينفي صور الوحي الحقيقية، وينسبه إلى أمر ذاتي للنبي ﷺ «فقد

---

(١) الشعراء.

(٢) ينظر: الوحي المحمدي ص٨.

(٣) جمع سُمْدُورُ وهو: (غِشَاوَةُ العَيْنِ) وضَعْفُ البَصَر. تاج العروس، ١٢/ ٨٦.

(٤) ينظر: الوحي المحمدي، ص٥٨، ٥٩، باختصار وتصرف.

(٥) وهو المستشرق الألماني: تيودور نولدكه.

ادعى أن الربط بين أنواع وحي الله إلى محمد ﷺ في نظام عقدي واحد قد أحدثه المسلمون فيما بعد، وأن النبي ﷺ لم يتحدث في رواية عائشة رضي الله عنها[1]، إلا عن نوع واحد فقط من أنواع الوحي وهو: أنه "كان يسمع صلصلة الجرس"، أما الأنواع الأخرى فهو يرفضها لسببين:

أولهما: أنها قيلت فقط لأن المتأخرين من المسلمين ارتضوا بعض الروايات الأخرى غير رواية عائشة رضي الله عنها.

ثانيهما: أنها تقوم على تفسيرات خاطئة للسنة والقرآن.

كما يعمد إلى الخلاف بين علمائنا، فيما إذا كان النبي قد رأى ربه أولا[2]؛ فيستغله في تعليل رفضه معظم تلك الأنواع[3].

كما رفض أن يكون الله ﷻ قد أوحى لنبيه ﷺ في السماء ليلة المعراج[4]، ورفض أيضا ظهور جبريل عليه السلام في صورة الصحابي دحية الكلبي رضي الله عنه[5].

ولا يخفى أن رفضه لأنواع الوحي – خلا حالة الصلصلة – يخدم هدفه في نفي الوحي الإلهي، وتفسير الوحي بتفسيرات شتى، تخرجه عن كونه نبي كالأنبياء السابقين،

(١) يقصد حديث عائشة رضي الله عنها عن كيفية الوحي، والذي سبق إيراده وتخريجه ص١٣٤٧، من البحث.

(٢) سبق إيراد ذلك الخلاف ص١٣٤٢ : ١٣٤٤، من البحث.

(٣) نولدكه/ تيودور: «تاريخ القرآن» ترجمة وقراءة نقدية للدكتور: رضا محمد الدقيقي، الجزء الأول بعنوان: «الوحي إلى محمد بين الإنكار والتفسير النفسي»، ١/ ٩١: ٩٣ وما بعد، ١/ ١٠١، سلسلة إصدارات وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية – قطر – بالتعاون مع دار النوادر – الكويت – الإصدار السابع، ط/ ٢، ١٤٣٢هـ – ٢٠١١م.

(٤) ينظر: نولدكه: «تاريخ القرآن»، ١/ ١٢٥، ١٣١.

(٥) المرجع السابق، ١/ ١٣٩.

أوحي الله إليه بوحي صادق مثلهم.

ولذا نجده يفسر ما كان يعتري النبي ﷺ من نزول الوحي عليه بأنه مرض نفسي، فيقول: «فمحمد – كما يروى – كانت تعتريه عند تلقي الوحي نوبة شديدة؛ بحيث تخرج الرغوات من فمه، وينحني الرأس، ويمتقع الوجه، ويصرخ مثل الفصيل، ويتفصد جبينه عرقًا رغم برودة الجو...»[1].

ونراه وهو ينسب الوحي إلى مرض نفسي ينفي عنه أن يكون ذلك المرض هو الصرع، الذي اتهمه به بعض الباحثين في العصور الوسطى[2]؛ ويرجع ذلك النفي إلى رفض بعض الباحثين المحدثين لهذه النظرة السطحية.

ولكنه يعود فيؤكد مزاعمه عن المرض النفسي ونفي الصرع؛ بسبب أن مرض الصرع لا يدري المصاب به ما حدث أثناء النوبة، أما المريض النفسي يتذكر ذلك بوضوح، فيقول: «لكن لأن توقف قدرة الذاكرة يكون من أعراض الصرع الأصلي؛ فإن الحديث عن حالات تهيج نفسي يصبح هو الأولى، ولقد كان مصابا بها منذ شبابه المبكر... ومن المحتمل أن هذه الحالات اعترته، وبخاصة في وقت بداية نبوته، حيث كانت روجه في ذروة حماسها، لكنها أيضا حدثت بعد الهجرة بعض الأحيان؛ فعندما كان محمد يذهب في تفكير عميق، فإنه كان في أثناء ذلك تأخذا إغماءة مفاجئة، وعندها كان يعتقد أن قوة إلهية تسري فيه، لكن – وكما رأينا سابقا – فإن الوحي يصبح واضحا عندما

(١) نولدكه: «تاريخ القرآن»، ١/ ١٤٩.

(٢) المرجع السابق، ١/ ١٥٧.

يفصم عنه الملك، أي عندما يعود إلى الوعي الكامل، بعد حالة الهيجان الشديدة تلك...»[١].

ويتناقض "نولدكه" مع نفسه حين يدعي أن ليس كل القرآن أوحي به في حالات التهيج الشديد المزعومة، فيقول: «لكن والحق يقال؛ فإن القارئ السطحي يرى بسهولة أنه ليس من الممكن أن يكون القرآن كله قد تكون في أقصى درجات حالة الجذب، وتتدرج الروح في درجات شتى، بدءًا من هذه المذكورة [أقصى حالات الجذب]، وانتهاء بأبسط حالات إنعام الفكر المقصود، ولم يكن محمد يحسب على الإطلاق أنه يستطيع استيعاب كل أجزاء القرآن في حالة التهيج الشديد، بل كلمات، وأفكار بعينها»[٢].

وإذا كان كل أجزاء القرآن لم تأت عن طريق التهيج النفسي المزعوم، فهل يمكن أن نفرق بين الحالتين في القرآن الكريم؟ بين قرآن أتى بسبب التهيج، وقرآن جاء بدون مرض! لإن هذا لشيء عجاب.

يعود "نولدكه" أدراجه ليحاول إثبات نظرته بالربط بين القِصر الموجود في سور القرآن المكي، وما يدعيه على النبي ﷺ من التهيج، فيقول: «إن معظم سور هذا الطور قصيرة: فمن ثمان وأربعين سورة[٣]، لدينا:

ثلاثة وعشرون في كل واحدة أقل من عشرين آية.

وأربع عشرة سورة في كل واحدة أقل من خمسين آية.

(١) نولدكه: «تاريخ القرآن»، ١/ ١٥٠، ١٥١.

(٢) المرجع السابق، ١/ ١٥٢.

(٣) هذا هو عد د سور الطور المكي وفق ترتيب "نولدكه".: «تاريخ القرآن" بالألمانية ، ق١ ص x1، ينظر: المرجع السابق، هامش ١/ ١٥٣، للمترجم.

وذلك لأن تهيج الروح العالي الذي استثارها لا يستطاع الاحتفاظ به طويلا»[١].

كما يجعل بعض الوحي انعكاسًا لحالة قلق نفسي، أو ناشئًا في وقت اكتئاب عميق، أو أثرًا لحالة نفسية بصفة عامة، فيقول: «تظهر حالات القلق النفسي بشكل مباشر في الآيات القصار لسورة القارعة، ويقول: إن الآيات ٢٥٥- ٢٥٩ من سورة البقرة ليس من السهل أن توضع في موضع محدد؛ إذ إن مبدا عدم ممارسة إكراه على الدخول في الإسلام في الآية ٢٥٧ من سورة البقرة، يمكن أن يكون قد نشأ في وقت اكتئاب عميق، كما يمكن أن يكون قد نشأ في وقت ثقة تامة بالنصر»[٢].

وهنا نلاحظ أيضا تناقضا جديدا بين كون الآية نتجت عن وقت اكتئاب عميق، أو ثقة تامة بالنصر، فأيهما أصدق؟!، مما يدل على التخبط والسير على غير هدى، والنظرة الذاتية التي تتمنى نفي الوحي، والتي تبتعد عن الموضوعية ومنهج البحث العلمي الصحيح في آن.

ولا يجدر بنا أن نمر على هذه الادعاءات دون رد علمي من علماء النفس المعاصرين، ونبين الفوارق الكبيرة بين الاضطراب والقلق والاكتئاب النفسي، وبين ما كان عليه محمد ﷺ وما أتي به من خير للبشرية، يعجز العقلاء مجتمعين عن الإتيان بمثله؛ والفارق بين الناحيتين من الوجهة النفسية الحديثة أن الإنسان في حالات القلق تسيطر عليه «مشاعر الخوف والاكتئاب، والشعور بالعجز عن اتخاذ قرارات حاسمة، أو سرعة اتخاذ قرارات لا تنفذ، وغالبًا ما تظهر اضطرابات أيضا في شكل تبني اتجاهات وأفكار لا منطقية، وقد تبين أن المصابين بالقلق والعصابيين غالبًا ما يتبنون أفكارًا مطلقة متطرفة،

---

(١) نولدكه: «تاريخ القرآن»، ١/ ١٥٣.

(٢) المرجع السابق، ١/ ١٥٣، ١٥٤.

وغير واقعية، ويميلون إلى النقد الشديد للذات، ويضعون متطلبات صارمة على ما يجب أن يفعلوه، وما لا يجوز أن يفعلوه.

أما الجانب السلوكي من القلق فيتعلق بالتورط والانغماس في سلوك ظاهر من الخوف والتوتر عند اختيار موضوعات القلق، ففي الحالات الشديدة من القلق يبدأ الشخص في معاناة تغيرات عضوية، كسرعة دقات القلب، والتشنج، وتقلصات البطن، والإسهال والدوار، والعرق البارد»(١).

فهل كل هذه الصفات كانت لازمة للنبي ﷺ ؟ إن أعدى أعدائه لم يصفه بصفة واحدة من هذه، وكانوا في أشد حاجات الطلب لذلك؛ فقد وسموه بالكهانة والجنون والسحر – مع ملاحظة أن هذه تهم هم أول من يعلم أنه براء منها، والغرض منها صرف وجوه الناس عنه – ولكن أحدا منهم لم يجد شيئا من صفات المرضى النفسيين لديه، وإلا لبادر بإلصاقها به.

وهل وجد أحد على مر التاريخ في صفاته ﷺ الخُلُقية ما يشبه حالات القلق والاكتئاب التي ذكرها هذا الذي يدعي موضوعية بحثه عن الوحي المحمدي؟

إن شمائله ﷺ – المستقاة من سيرته العطرة – وأحواله من كلامه وفعاله، لهي أعظم شاهد، وأقوى دليل على علو عقله، وسمو نفسه، وترفع خلقه، وفي تشريعاته وتوجيهاته، وحتى في عاداته وحياته البشرية لا نرى إلا كل هداية ورشد.

---

(١) إبراهيم/ د: عبد الستار «الحكمة الضائعة» الإبداع والاضطراب النفسي والمجتمع، ص٣٧، ٣٨، ط/ سلسلة عالم المعرفة، عدد ٢٨٠، ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٢م.

وحتى لو فرض جدلًا أن ما جاء به من عنديات نفسه، فلم ينفي ذلك عنه؟ وقد رأينا أن كل عبقري حصيف، أو مفكر فيلسوف ينسب لذاته ارتفاع فكره على جميع الخلق، وأن ما أتى به هو من جهده، وذكاء ذهنه، وصفاء نفسه.

وبعد أن يفشل "نولدكه" في إقناعنا – أو حتى إقناع نفسه بما يهذي – من تفسير للوحي بأنه مرض نفسي، يعود فيدعي أن الوحي إليه ﷺ لم يكن سوى صوت نما بداخله (كرد فعل على شرك قومه)، وكان سبب ظهور هذا الصوت الداخلي عاملان هما: الخلوة الطويلة في الغار، والتفكر في عقائد أهل الكتاب، فظن أن هذا الصوت الداخلي صادر له من الله تعالى[1]، يقول "نولدكه": «عندما حمل محمد في خلوته الطويلة أفكار الغرباء، وتركها لتتفاعل مع فكره، أخذت تتشكل بداخله إلى أن أجبره الصوت الداخلي أخيرًا أن يتقدم لمواطنيه ليهديهم، رغم الخطر والاستهزاء، بهذا يجب أن نفهم حماس النبوة، الذي يصل لدرجة التعصب، إن المرء كلما تعرف أكثر من خلال أفضل السير والقرآن، الذي هو المصدر الصحيح الذي ليس عليه غبار، ازداد ثقة أن محمدًا قد آمن بحقية رسالته، وأن عليه تبديل عبادة الأوثان الخاطئة عند العرب، وإلا فكيف قوي على أن ينذر المكذبين برسالته، متوعدًا إياهم بأشد عذاب في جهنم؛ لدرجة أنه يوضح أيضا أنه ذاته سيقع تحت عقوبة الله إذا لم يبلغ الوحي كاملاً»[2].

ويزعم "نولدكه" أن النبي كان لديه في البداية خوف شديد، هو الذي منعه من إعلان دعوته، لكنه فيما بعد قاوم بالصوت الداخلي ذلك الخوف؛ حيث أوجب عليه البلاغ، يقول: «إضافة إلى هذا، تأتي حقيقة يحاول المسلمون التغطية عليه، وهي أن محمدًا

---

(١) نولدكه: «تاريخ القرآن»، مقدمة المحقق د: رضا الدقيقي، ٢/ ٥.

(٢) المرجع السابق، ٢/ ٦، ٧.

كان بطبيعته لين الجانب، أو قل: خوافًا؛ حيث لم يجرؤ أبدًا في البداية أن يعلن دعوته، لكن الصوت الداخلي لم يدعه في راحة... وفي حين أنه كان يمتلك ذكاء عمليا شديدًا لم يكن باستطاعته بدونه أن ينتصر على أعدائه؛ فلقد كان ينقصه – بشكل رهيب – القدرة على التجريد المنطقي؛ لذا فقد اعتبر كل ما يتحرك بداخله شيئًا خارجيًا مرسلاً له من السماء، ولم يختبر أبدًا هذا الإيمان، بل انقاد للشعور الغريزي، الذي قاده مرة إلى هنا ومرة إلى هنا؛ إذ إنه كان يعتبر [هذا الشعور الداخلي] صوت الله، الذي قدر له بشكل خاص»[1].

وما ذكره "نولدكه" سلفا لا يختلف كثيرًا عما سبق من مزاعمه، وأبسط رد على مقالته، هو استطاعة النبي ﷺ الفصل بين جميع أنواع الوحي التي دعي بها، فقد فصل ما بين وحي القرآن ووحي السنة، والأحاديث القدسية، والأمور العادية التي لم يرد فيها وحي، ومن المحال أن يكون من هذا حاله يعتريه قلق أو مرض، أو صوت داخلي مزعوم؛ إن هذا حال الأنبياء والمرسلين من السابقين عليه، وما سرى عليهم هو ما جرى له، بدون فصل بينهم، ومن أراد الفصل فليأت بشاهد أو دليل!.

فما جاء به "نولدكه" وغيره، ممن سار على دربه من ترهات وزيوف، أباطيل لا حقيقة لها، ولا طائل من ورائها.

قد يقال: إن النبي ﷺ رأى أن نسبة الوحي إلى الله يعينه على استصلاح الناس باستيجاب طاعته عليهم، ونفاذ أمره فيهم، فأمر الله ليس كأمر البشر، وهذا قياس فاسد في ذاته، وفاسد في أساسه، أما أنه فاسد في ذاته؛ فلأن صاحب القرآن قد صدر عنه

(١) نولدكه: «تاريخ القرآن»، ٢/ ٧، ٩.

الكلام المنسوب إلى الله، والكلام المنسوب إلى نفسه (الأحاديث النبوية) وأما أنه فاسد في أساسه؛ فلأنه مبني على افتراض باطل، وهو تجويز الكذب والتمويه والتدليس منه ﷺ على الناس، وذلك أمر يأباه الواقع التاريخي[1] فإن من تتبع سيرته الشريفة في حركاته وسكناته، وكل أحواله، لا يشك أبداً في أنه كان أبعد الخلق عنه، شهد بذلك ماضي سيرته وحاضرها، ويأتي تصريح الوحي بذلك نافياً هذه الشبهة عن نفسه، قال ﷻ: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾[2].

والدلائل على ذلك من القرآن نفسه لا تعد ولا تحصى؛ ولنأخذ على سبيل المثال فترة الوحي عنه في حادث الإفك، وهو في أشد الحاجة إليه، حتى قال لزوجه ﵂: «..يا عَائِشَةُ فإنه بَلَغَنِي عَنْكِ كَذَا وَكَذَا فَإِنْ كُنْتِ بَرِيئَةً فَسَيُبَرِّئُكِ الله وَإِنْ كُنْتِ أَلْمَمْتِ بشيء فَاسْتَغْفِرِي اللهَ وَتُوبِي إليه..»[3] فما كان يمنعه – إن كان الوحي منه – أن يبرئ ساحتها؛ ليحمي عرضه، فتنقطع ألسنة المتخرصين؟ ولكنه ما كان ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ

---

(١) لنقرأ مثلاً ما كتبه توماس كارليل في كتاب الأبطال، وما كتبه االكونت هنري دي كاستري الفرنسي في سوانحه وخواطره حول الإسلام، وشهادة قريش التي سجلها أبو سفيان وهو في الجاهلية بين يدي هرقل، والقصة رواها الشيخان البخاري عن عبد الله بن عباس ﵄ كتاب بدء الوحي، باب بدء الوحي، ح ٦، ومسلم عن عبد الله بن عباس ﵄ كتاب الجهاد، باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل ح ١٧٧٣.

(٢) يونس.

(٣) رواه البخاري في كتاب الشهادات، باب تعديل النساء بعضهن بعضا، ح٢٥١٨.

بِٱلۡيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾[1].

يضاف إلى ذلك مخالفة القرآن الكريم لطبع النبي ﷺ وعتابه الشديد له في المسائل المباحة[2] وتخطئة اجتهاده ـ فيما لا وحي فيه ـ أو حكمه في بعض الأمور بخلاف الأولى، ونفيه علم الغيب عن نفسه، وأنه لا يملك لها ضراً أو نفعاً، ومسلكه ﷺ الأخلاقي، الذي يعرف من سيرته العطرة، والتي لا يمكن أن تكون من متقول أو دعيٍّ يدعي على الله كذباً، حاشاه ﷺ.

قال الجهلاء من الملحدين: لقد كان له ﷺ من الذكاء الفطري، والبصيرة النافذة، ما يؤهله لإدراك الحق والباطل، والحسن والقبيح، والخير والشر؛ فقد كان يتمتع بفراسة لا تخطئ ، وعقل كامل، وتأملات صادقة.

ونحن بدورنا نصفه بأكثر مما وصفوه من شمائله، ولكننا نسأل: هل كان كل ما في القرآن من قبيل ما يستنبطه العقل، ويدركه الوجدان والشعور؟! اللهم كلا؛ ففي القرآن جوانب عدة من المعاني التي لا مجال فيها للعقل والاستنباط ولا سبيل إلى علمها إلا

(١) الحاقة، وينظر: النبأ العظيم ص١٥: ٥٤ باختصار.

(٢) من ذلك قوله: ﷻ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ﴾ [التحريم] وقوله ﷻ: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [التوبة] وقوله ﷻ ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾ [التوبة] وأول سورة عبس، وغيرها كثير. ينظر: النبأ العظيم ص٥٤، وغير ذلك من الأدلة في الصفحات بعدها.

بالتلقي والتعلم، وإلا فماذا نقول فيما قصه القرآن عليه من أنباء ما قد سبق وهو رجل أمي لم يسبق بتعلم ولا معلم؟[١].

وحتى ما يمكن أن يدرك بالعقل مما جاء به القرآن، فإنه لا بد أن يأتي عن طريق مقدمات معلومة للتوصل منها إلى مجهول ما، وما سوى ذلك لا سبيل للعقل إليه، فهل ما في القرآن من ذلك حاضر الوسائل والمقدمات في نظر العقل؟ إن ثمة حقائق ثابتة بالقرآن لا مجال فيها للعقل: فالأمور الدينية كحدود الإيمان وغايته، والجنة والنار، وصفاتهما، وقبل ذلك وبعده بدء العالم ونهايته، كل هذا وغيره لا سبيل فيه لعقل أو فطرة أو تأمل، والإنباء عن الأمور الغيبية الماضية كأخبار الأنبياء والأمم السابقة، والحاضرة كالجن والملائكة، والمستقبلة كمستقبل الإسلام وبزوغه وظهوره على الدين كله، وحفظ القرآن من الضياع أو التحريف، وانتصار الروم على الفرس في بضع سنين.. وغير ذلك كثير[٢].

---

(١) والقرآن نفسه يحدثنا عن ذلك في كثير من الآيات، من ذلك قوله ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۚ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ ٤٤﴾ [آل عمران] وقوله: ﴿تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ﴾[هود: ٤٩] فإنه ﷺ ما يقرأ أو يكتب ﴿وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ٤٨﴾ [العنكبوت] . وينظر: النبأ العظيم ص٦٥: ٦٦.

(٢) ينظر: النبأ العظيم ص٦٧: ٨٢، باختصار.

إن الأنبياء أنفسهم - وهم في الطبقة العليا من الذكاء والفطنة - إذا اجتهدوا رأيهم فيما غاب عن مجلسهم أصابوا وأخطأوا، فهذا يعقوب عليه السلام يتهم بنيه مرتين: مرة عندما جاءوا على قميصه بدم كذب، وأخرى عندما قالوا له: إن ابنك سرق، فقال لهم في كل مرة: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾[1] وأصاب في الأولى وأخطأ في الثانية، وهذا موسى عليه السلام يقول للعبد الصالح: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾﴾[2] ثم ينسى فلا يطيق معه صبراً، ولا يطيع له أمراً، وكذلك نبينا ﷺ كان ربما هم الناس أن يضللوه في الأحكام فيدافع عن المجرم ظناً منه أنه بريء حتى أنبأه العليم الخبير[3] وعاتبه بقوله ﷻ: ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾﴾[4].

فالوحي نفسه الذي أنزل عليه يؤكد أنه لا يعلم الغيب[5] ويقرر هو ﷺ أنه بشر

(١) يوسف: ١٨، ٨٣.

(٢) الكهف.

(٣) ينظر: النبأ العظيم ص٨٢.

(٤) النساء. والقصة في الآيات من ١٠٥: ١١٣، وقد صح في سبب نزولها أن لصاً عدا ذات ليلة على بيت لرجل من الأنصار فسرق ما فيه من طعام وسلاح، فلما أصبح الأنصاري أيقن أنه في بيت بني أبيرق، وكان فيهم منافقون، فحاولوا أن يزيلوا التهمة عنهم باتهامهم لقتادة بن النعمان وعمه رفاعة، حتى كاد النبي ﷺ أن يميل إليهم، فنزل القرآن يبين خيانة بني أبيرق في تسع آيات من سورة النساء. ينظر القصة وسبب نزول الآيات في تفسير الطبري ٥/ ٢٦٥، وما بعدها، وحديثه في الترمذي عن قتادة بن النعمان كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة النساء ح/ ٣٠٣٦.

(٥) قال ﷻ: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ [الأعراف] وقال ﷺ: «إنما أنا بَشَرٌ وَإِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إلي وَلَعَلَّ

يخطئ ويصيب[١]، في أمور الدنيا، دون الوحي.

أفترى من كان هذا حاله وحالهم أن يكون الوحي إليهم من تلقاء أنفسهم، أو من بدائع مخيلتهم، أو وحي شياطينهم؟ لو كان هذا صحيحاً فما كان أبعدهم عن تخطئة أنفسهم، وما كان أقربهم من الوقوع في شباك الزلل والفضيحة بضرب من التخبط، والسير في عماية الادعاء بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير؟!

الشبهة الثانية: زعم بعضهم أنه ﷺ كان عصبياً حاد المزاج، وكان مريضاً بما يسمونه الهستيريا، فالوحي الذي كان يزعمه ما هو إلا أعراض لتلك الحال التي أصيب بها[٢].

ويرى بعض هؤلاء «أن محمدًا لم يكن في أوائل أيامه كاذبًا فيما يدعيه من رؤية الملك، ومن سماعه أقواله، ومن شعوره بالوحي الباطن؛ لأنه كان في زعمهم مريضًا عصبي المزاج مصابًا (بالهستيريا) فيرى ويسمع ما لا حقيقة له، ويحسبه حقائق، ويصبغه بصبغة العقائد التي تملأ قلبه، والصور التي تشغل عقله، ولكنه في آخر أدواره خفت وطأة الهستيريا عنده، فكان يستر عجزه بالتكلف، فيدعي أنه أوحي إليه ولم يوح إليه، راميًا بذلك إلى تحقيق أحلامه الاجتماعية والدينية»[٣].

بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ من بَعْضٍ فَأَقْضِي على نَحْوِ ما أَسْمَعُ فَمَنْ قَضَيْتُ له بحق أَخِيهِ شيئا فلا يَأْخُذْهُ فَإِنَّمَا أَقْطَعُ له قِطْعَةً من النَّارِ » رواه الشيخان البخاري في كتاب الأحكام، بَاب مَوْعِظَةِ الْإِمَامِ لِلْخُصُومِ ح ٦٧٤٨، ومسلم في كتاب الأقضية، بَاب الْحُكْمِ بِالظَّاهِرِ وَاللَّحْنِ بِالْحُجَّةِ ح١٧١٣.

(١) ينظر: النبأ العظيم ص٨٢.

(٢) ينظر: مناهل العرفان ١/ ٥٩.

(٣) محمد فريد وجدي، الإسلام دين عام خالد، ص١٣٧، مرجع سابق.

وقد سبق أن ذكرنا[١] أن جل الباحثين اليوم لا يعتدون بمثل هذه الأقاويل التي شاعت في العصور الوسطى، فهذه فرية أخرى تدل على جهلهم الفاضح بمحمد ﷺ فإن المعروف عنه بشهادة التاريخ الصحيح والأدلة القاطعة أنه كان ﷺ وديعاً صبوراً حليماً، بل كان عظيم الصبر، واسع الحلم، فسيح الصدر حتى إنه وسع الناس جميعاً ببسطه، وخلقه، وكان شجاعاً مقداماً، سليم الجسم، صحيح البدن، حتى إنه صارع "ركانة" المشهور بشجاعته فصرعه، وكان يثبت في الميدان حين يفر الشجعان، ويفزع الخلق، ويشتد الأمر، ولو أفضنا في هذا الموضوع لطال بنا الكلام، ولكن موضوعه كتب السيرة والشمائل المحمدية - فليرجع إليها من شاء -[٢].

أما مرض الهستيريا كما بينه بعض العلماء فهو داء عصبي عضال، أكثر ما يصاب به النساء، وهو مرض وراثي، في صفاته المميزة شذوذ خلقي حاد، وحساسية متطرفة تصل إلى حدود غير معقولة، وعندما يزداد يشعر المصاب بالاختناق، وضيق الصدر، وخفقان مزعج وارتعاش، واضطراب في الهضم، وقد يصل بصاحبه إلى شلل موضعي، ثم إلى تشنج وإغماء، ويسبق ذلك بكاء وعويل وكرب عظيم وهذيان.

فإذا تجاوز هذه الدرجة دخل في دور أشد منه فيرى أشباحاً تهدده، وأعداء تحاربه، أو يسمع أصواتاً تخاطبه، على حين أنه لا وجود لشيء من ذلك كله في الحس والواقع[٣].

فهل كان النبي ﷺ تنتابه هذه الأعراض؟!

---

(١) ص١٣٦٣ من البحث، وينظر: نولدكه «تاريخ القرآن» ١/ ١٥٧.

(٢) ينظر: مناهل العرفان ١/ ٥٩.

(٣) ينظر: الإسلام دين عام خالد، ص١٣٨، مناهل العرفان ١/ ٥٩.

لو كان كذلك لوجب وضعه في أقصى درجات هذا المرض؛ لأنه كان يرى شبحًا يظنه ملكا، ويسمع صوتا يتخيله وحيا، ومتى كان المصاب بهذه الصفة وجب أن يكون هدفًا لجميع أعراضه، من أول شذوذ الأخلاق، والخفقان والبكاء والتشنج والهذيان، إلى التخبط باليدين والرجلين، والقفز بالجسم كله من مكان إلى مكان.

فهل نقل عن خاتم المرسلين شيء من هذه الأعراض الثقيلة، على كثرة الذين تتبعوا حياته، وأعماله؟

وهل عهد في التاريخ أن مريضًا بهذا الداء العضال، الذي أعجز الطب شفاءه، يطهر أمة برمتها من أرجاس الوثنية، ودنس الشرك، ويوحد كلمتها، ويجمع متفرقها، وينقلها من طور البداوة المتحجر، حتى تصل بعد ثمانين عاما إلى دولة لا تغرب عنها الشمس، هي أكبر دولة عرفها التاريخ إلى اليوم؟

وهل يتفق ذلك وما هو معروف عن النبي ﷺ من أنه كان أمة وحده في أخلاقه، وثباته، وحلمه، وعقله، ورباطة جأشه، وسلامة جسمه، وقوة بنائه؟

وهل المريض المتهوس الذي لا يصلح لقيادة نفسه يتسنى له أن يقوم بهذه القيادة العالمية الفائقة، ثم ينجح فيها هذا النجاح المعجز المدهش؟![1].

إذا كان محمدًا ﷺ وهو هستيري مريض في رأيهم يوفق إلى مثل هذه الأمور الجسام، التي لم يأت بمثلها كبار الملوك والسلاطين، بل ولا أولوا العزم من المرسلين، فماذا كان صانعًا لو كان رسولا حقا يرى الملك ويسمع منه الوحي؟

---

(١) ينظر: الإسلام دين عام خالد، ص١٣٩، مناهل العرفان ١/ ٥٩، ٦٠.

ولو كان هذا حاله وهو مريض، فماذا بقي للصادقين الكاملين، وللأصحاء العاملين؟

هل عهد أحد في تاريخ الإنسانية أن المرضى المتهوسين يصلحون لقيادة أنفسهم فضلا عن التصدي لقيادة الأمم، وإيصالها إلى أوج لم تصل إليه أمة قبلها ولا بعدها؟

وهب أن الهذيان يؤدي المصاب بالهستيريا إلى التصدي لمثل هذه الخطة، فهل يكون حاله في الدعوة إليها أمثل من حال المجنون يُضحك من يسمعه يهذي بها، ويستدعي غيره ليشاركه في التلهي بما يقول؟

وهل بلغنا أن العرب الجاهليين ضحكوا من دعوته ﷺ واتخذوا هزوا ولعبا، أم قابلوه بالاضطهاد، وصبوا على أشياعه ألوان العذاب والتنكيل، حتى اضطروهم للخروج من بلادهم مرتين للحبشة ومرة للمدينة، وهناك حاربوهم وقاتلوهم، حتى انهزموا، وانتهى أمرهم بالخضوع له؟[1].

وبعد أن تفنيد شبهات كلٍ، هل بقى بعد ذلك أدنى شبهة من كون هذا الوحي من رب العزة إلى محمد ﷺ؟ فما وجدنا في حياته السلوكية، ولا في وسائله وصلاته العلمية، ولا في سائر الظروف العامة والخاصة التي ظهر فيها القرآن، إلا شواهد ناطقة بأن وحي القرآن ليس له على ظهر الأرض أب تنسب إليه من دون الله ﷻ[2].

---

(١) ينظر: الإسلام دين عام خالد، ص١٣٩، ١٤٠.

(٢) ينظر: النبأ العظيم، ص١٠٦.

المبحث الرابع
إمكان الوحي من منظور العلم الحديث

تمهيد:

من معاني الوحي في اللغة والاصطلاح، وكما ورد في القرآن والسنة، تدل بلا أدنى شك على أنه أمر غير مستبعد، لا من حيث العقل - فضلاً عن الشرع - ولا من حيث العلم، ولا من ناحية الواقع، وإن الذين يحيلون إمكانه أو ينكرون وقوعه، ليصادمون بداهة عقولهم، ويغمضون أعينهم عن مشاهدة الحق الصراح، ومن البلاهة بمكان جحد ما ثبت بالمعقول، فضلاً عن إنكار ظاهر المحسوس.

«إن أعداء الوحي ومنكريه لا يؤمنون بالشرع وأدلة الشرع، إنما يؤمنون بالعقل على الطريقة التي يستسيغونها، وبالعلم الذي تواضعوا عليه في اصطلاحهم الحديث، وهو جملة المعارف اليقينية التي أنتجها دستور البحث الجديد في الوجود وكائناته، من جعل الشك أساساً للبحث، والاستناد إلى القاطع الذي يؤيده الحس دون سواه، فهم يقدمون الشك ويمعنون فيه، ثم لا يعترفون إلا بالحسيات ولا يحفلون بمجرد العقليات، ومن هنا سجنوا أنفسهم في سجن المادة، ومكثوا حيناً من الدهر ينكرون ما وراء المادة، ويسرفون في الشكوك إلى أبعد الحدود، ويستخفون بأمر الإلهيات والنبوات والوحي إلى مدى بعيد، لم تصل إليه أظلم عهود الجاهلية، لولا أن صدمهم العلم نفسه صدمة عنيفة، غيرت رأيهم في إنكار ما وراء المادة»[1].

إن موقف الذين ينكرون ظاهرة الوحي المحمدي من المحدثين والمعاصرين،

(١) مناهل العرفان ١/ ١٤٧، ١٤٨.

كبعض المستشرقين وأضرابهم، ومن قبلهم من الملاحدة والبراهمة[١] وغيرهم، ليس هو الموقف العلمي، ومهما تفننوا في هذا الإنكار فإنه لا يدل إلا على شيء واحد، وهو أنه إنكار وتكذيب بلا علم، ومن المعلوم منهجياً أن التكذيب بلا علم كالتصديق بلا علم، كلاهما مرفوض عقلاً وشرعاً..

فأما عقلاً: فلأن ما جاوز البدهيات لا بد أن يقام عليه الدليل إثباتاً أو نفياً، فإذا لم يكن كذلك أصبح الكلام من قبيل الدعاوى التي لا دليل عليها.

وأما شرعاً: فلأن القرآن الكريم قد أثبت قضية الوحي[٢] بل إنه ﷻ قد شهد بنفسه على ذلك ومعه الملائكة[٣]، كما رد على من كذب بالحق قبل أن يحيط به علماً، أو يعلم تأويله على الوجه الصحيح، قال ﷻ: ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ..﴾[٤].

وبناء على ما تقدم يمكننا أن نحكم على هؤلاء الذين ينظرون إلى ظاهرة الوحي

---

(١) قبيلة بالهند فيهم أشرافها، يزعمون أنهم من ولد «برهمي» ملك قديم من ملوكهم، وهم يعترفون بالتوحيد، ولكنهم لا يؤمنون بالنبوة والرسالة؛ لاستحالة ذلك في عقولهم، فهم يعبدون مطلقاً لا من حيث نبي ورسول، كما أنهم يزعمون أنهم أولاد إبراهيم عليه السلام وأن له كتاباً كتبه من= =نفسه، وهذا كذب فهم ينكرون النبوات أصلاً، ومنهم أناس يتزينون بزيهم وليسوا منهم؛ لأنهم يعبدون الوثن، فمن عبد منهم الوثن فليس منهم. ينظر: الفصل ١/ ٨٦، الملل والنحل ٢/ ٢٣٧، كشاف اصطلاحات الفنون ١/ ٣٢٠.

(٢) قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ﴾ [النساء: ١٦٣].

(٣) قال ﷻ: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٦].

(٤) يونس: ٣٩.

بمنظار غير صحيح، وبالتالي يحكمون عليها أحكاماً غير صحيحة[1] بأنهم من الذين ختم الله على قلوبهم وسمعهم، وعلى أبصارهم غشاوة.

يقول الإمام محمد عبده: إن وجود الوحي، وانكشاف ما يحققه من مصالح، وسهولة فهمه عند العقل، لا يصعب إدراكه إلا على من لا يريد أن يدرك، ولكن يوجد في كل مكان وزمان أناس يقذف الجهل إلى ما وراء سواحل اليقين، فيسقطون في غمرات من الشك في كل ما لم يقع تحت حواسهم الخمس، بل قد يدركهم الريب فيما هو من متناولها، فينحطوا إلى درجة الحيوان الأعجم، ويجدون في ذلك لذة الإطلاق عن قيود الأوامر والنواهي، بل عن محابس الحشمة التي تضمهم إلى التزام ما يليق، وتحجزهم عن مقارفة مالا يليق، فإذا عرض عليهم شيء من الكلام في النبوات والأديان، وَهَمَّ من أنفسهم هامٍّ بالإصغاء، دافعوه بما أوتوا من الاختيار في النظر، وجعلوا أصابعهم في آذانهم حذر أن يخالط الدليل أذهانهم، فيلزمهم العقيدة تتبعها الشريعة، فيحرموا لذة ما ذاقوا، وهو مرض في الأنفس والقلوب، يستشفى منه بالعلم إن شاء الله[2].

استند المنكرون للوحي قديمًا وحديثًا إلى استحالة اتصال الروحاني بالجسداني، ولكن الوحي ليس بمستحيل بل هو أمر ممكن في ذاته؛ لأنه لا يترتب على القول به مستحيل، ومن قال بخلاف ذلك فليعرفنا وجه الاستحالة، فإن العقول لا تجد مانعاً من أن الله ﷻ يصطفي أناساً يقوي أرواحهم لتلقي الوحي[3].

---

(١) ينظر: أصول العقيدة الإسلامية ص٢١٢، ٢١٣.

(٢) ينظر: رسالة التوحيد ص٥٧، ٥٨.

(٣) ينظر: أصول العقيدة الإسلامية ص٢١٧، «العقيدة الإسلامية والأخلاق» ص١١٦، ١١٧، قارن: دراسات في العقيدة الإسلامية والأخلاق ص١٢١.

وإذا كان الوحي ممكناً عقلًا، مؤيداً علماً، واقعاً فعلًا، وإذا كان بعض الطوائف – بجهل مركب – قد أنكرته فإن نصب الأدلة على إمكانه ليس من باب إثباته، أو محاولة إقناع الغير به، فهو أمر بين بذاته، بل من باب إقامة الحجة على المنكرين والمشككين، وكذا الرد على ملحدي اليوم الذين ينكرون النبوات قاطبة، بزعم أن العلم الحديث لا يمكنه إثبات تلك القضية؛ لكنها ليست مما يقع تحت الحس والتجربة، ودفع المحاجَّة لهم أن يأتوا يوم القيامة قائلين: إنا كنا عن هذا غافلين.

ولبيان إمكان الوحي من واقع العلم الحديث أرى أن هذا الإمكان يدور على أربعة محاور:

الأول: استعداد نفس النبي لتلقي الوحي.

الثاني: وجود ملك يبلغ الوحي.

الثالث: تفاوت فطر البشر في الاستعداد لتلقي الإلهامات الإلهية.

الرابع: تضافر الأدلة العلمية على إمكان حصول الوحي.

فأما عن المحور الأول: فأي استحالة في أن ينكشف لفلان ما لا ينكشف لغيره من غير فكر وترتيب مقدمات، مع العلم أن ذلك من قبل واهب الفكَر، ومانح النظر، وليس بمستنكر على الله أن يخلق لدي بعض عباده استعداداً خاصاً يتميزون به عمن سواهم، به يقدرون على تلقي الوحي[1].

وإذا كانت مراتب الإدراك في البشر متفاوتة، فإن نفس النبي قد خصت بأصل فطرته، وخصها الله بكمالات هيأتها لعلم حقائق الأشياء من غير أن تتقيد بطريق مألوف،

(١) ينظر: رسالة التوحيد ص٥٨، أصول العقيدة الإسلامية ص٢١٧.

فتفهم صوت الملك، وتقوى على مشاهدة صورته الأصلية[١].

يقول العلامة ابن خلدون: «...ثم إنا نجد في العوالم على اختلافها آثارا متنوعة، ففي عالم الحس آثار من حركات الأفلاك والعناصر، وفي عالم التكوين آثار من حركة النمو والإدراك، تشهد كلها بأن لها مؤثرًا مباينًا للأجسام، فهو روحاني ويتصل بالمكونات لوجود اتصال هذا العالم في وجودها، وذلك هو النفس المدركة والمحركة، ولا بد فوقها من وجود آخر يعطيها قوى الإدراك والحركة، ويتصل بها أيضا ويكون ذاته، إدراكا صرفا وتعقلا محضا وهو عالم الملائكة، فوجب من ذلك أن يكون للنفس استعداد للانسلاخ من البشرية إلى الملكية؛ ليصير بالفعل من جنس الملائكة وقتا من الأوقات في لمحة من اللمحات، وذلك بعد أن تكمل ذاتها الروحانية بالفعل، ويكون لها اتصال بالأفق الذي بعدها شأن الموجودات المرتبة، فلها في الاتصال جهتا العلو والسفل، وهي متصلة بالبدن من أسفل منها، وتكتسب به المدارك الحسية التي تستعد بها للحصول على التعقل بالفعل، ومتصلة من جهة الأعلى منها بأفق الملائكة، ومكتسبة به المدارك العلمية والغيبية؛ فإن عالم الحوادث موجود في تعقلاتهم من غير زمان»[٢]، وهؤلاء هم الأنبياء الذين ينسلخون من البشرية ليتصلوا بعالم الملائكة، يتلقون منهم وحي الباري ﷻ[٣].

ويدلل الإمام محمد عبده على اتصال الأرواح وتأثيرها في النفوس والأبدان بالمرضى الذين يرون ويسمعون ما لا يسمعه غيرهم – بتسليم المنكرين ذلك – فيقول: إن تمثل الصوت وأشباح الأرواح في حس من اختصه الله بتلك المنزلة، لا يبعد عنه في بعض

(١) ينظر: دراسات في العقيدة الإسلامية والأخلاق ص١٢١.

(٢) مقدمة ابن خلدون، ص٩٦.

(٣) قارن: الدين والوحي والإسلام ص٨١.

المصابين بأمراض خاصة على زعم المنكرين، فقد سلموا أن بعض معقولاتهم يتمثل في خيالهم، ويصل إلى درجة المحسوس، فيصدق المريض في قوله: إنه يرى ويسمع، ولا شيء من ذلك في الحقيقة بواقع، فإن جاز التمثل في الصور المعقولة، ولا منشأ لها إلا في النفس، فلم لا يجوز تمثل الحقائق المعقولة في النفوس العالية؟ فشأنهم في الناس غير الشئون المألوفة، وهذه المغايرة من أهم ما امتازوا به، وقام منها الدليل على رسالتهم، والدليل على سلامة شهودهم وصحة ما يحدثون عنه: أن أمراض القلوب تشفى بدوائهم، وأن ضعف العزائم والعقول يتبدل بالقوة في أممهم التي تأخذ بمقالهم، ومن المنكر في البديهة أن يصدر الصحيح من معتل، ويستقيم النظام بمختل[(١)].

اعتراض: احتج منكرو الوحي على استحالته من هذا الوجه بقولهم: «المبعوث لا بد أن يعلم أن القائل له: أرسلتك فبلغ عني هو الله، ولا طريق إلى العلم به؛ إذ لعله من إلقاء الجن؛ فإنكم أجمعتم على وجوده وعلى جواز إلقائه الكلام إلى النبي»[(٢)].

والطريق في الانفصال عن كلمات أهل الضلال أن يقال: إن ما أشاروا إليه من تعذر علمه بمرسله بعيد؛ إذ لا مانع من أن يعلمه المرسل له أنه هو الله ﷻ وذلك بأن يجعل له على ذلك آيات ودلائل (معجزات) بحيث تتقاصر عنها قوى سائر الحيوانات المخلوقات، أو بأن يكون ما أنزل إليه وألقى عليه يتضمن الإخبار عن الغائبات والأمور

(١) ينظر: رسالة التوحيد ص٥٩، ٦٠.

(٢) شرح المواقف ٨/ ٢٥٥، قارن: التفتازاني/ مسعود بن عمر بن عبد الله «شرح المقاصد» ٣/ ٢٧٢، ت/ إبراهيم شمس الدين، ط/ دار الكتب العلمية، ط/ ١، سنة ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م، الآمدي/ علي بن أبي علي بن محمد بن سالم «غاية المرام في علم الكلام» ص٣٢٠، ت/ حسن محمود عبد اللطيف، ط/ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - القاهرة - سنة ١٣٩١هـ.

الخفيات، التي لا يمكن معرفتها إلا لخالق البريات، أو بأن يخلق له العلم الضروري بذلك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٢٠﴾(١)، وليس المطلوب لهذا الشخص من قبل الله ﷻ بمستحيل، ولا نزول الوحي إليه مع الأمين جبريل؛ فإنه غير بعيد أن تشمله العناية من المبدأ الأول بتكميل فطرته، وتصفية جوهر نفسه وتنقيته؛ بحيث يتهيأ لقبول هذه الأسرار، ويستعد لدرك هذه الأنوار، فيرى ملائكة الله على صور مختلفة، ويسمع وحيها وحده دون غيره من الحاضرين، ويختص به دونهم أجمعين ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ..﴾(٢).

وليس ما يراه النبي من اختلاف صور الملَك لِتَبَدُّلِ حقيقته، أو لتبدل صورته وشكله، بل إنها أنوار روحانية، وجواهر عقلية، تظهر في الخيال على اختلاف تلك الأشكال، ويكون تعلقها به في ضرب المثال على نحو تعلق الأنفس الناطقة بالأبدان، فإذا اشتد صفاء نفسه بحيث صارت متصلة بعالم الغيب، انطبعت تلك الأشكال في القوة الخيالية، وارتقت فيها تلك الكمالات اللاهوتية، ثم انطبع ما حصل في الخيال من الإدراكات الظاهرة في الحواس الباطنة، فإذ ذاك يرى من الأشخاص والصور، ويسمع من الأصوات ما تتقاصر عن الإحاطة به قوى البشر، فما يراه من الصور هي ملائكة الله، وما يسمعه من الكلام هو كلام الله، ووحيه الموحى به إليه(٣).

ومن البدهي القول بأن نفس النبي نفس شفافة صافية، تستطيع درك الخفيات من

---

(١) البقرة.

(٢) الحج: ٧٥.

(٣) ينظر: غاية المرام ص٣٢٤، ٣٢٥، قارن: شرح المواقف ٨/ ٢٥٦، شرح المقاصد ٣/ ٢٧٢.

الحقائق الإلهية، وليس هذا من داخله أو من كسبه ودربته - كما يقوله الفلاسفة - بل هو محض فضل واصطفاء من الله ﷻ فهو الذي يختاره من دون البشر، ويصفي نفسه ويطهرها، ويقربها من ملكوت رحمته، ثم يرسل إليه رسوله بأشكال وصور عديدة؛ ليبلغه مراده منه ومن خلقه، وما ذلك على الله بعزيز «لقد هدى الله ﷻ نبيه ﷺ إلى ما كانت تتلمسه بصيرته باصطفائه لرسالته، واختياره من بين خلقه لتقرير شريعته»(١).

«إن استعداد نبينا محمد ﷺ للنبوة والرسالة، عبارة عن جعل الله ﷻ روحه الكريمة كمرآة صقيلة، حيل بينها وبين كل ما في العالم من التقاليد الدينية، والأعمال الوراثية، والعادات المنكرة، إلى أن تجلى فيها الوحي الإلهي بأكمل معانيه وأبلغ مبانيه، لتجديد دين الله المطلق الذي كان يرسل به رسله إلى أقوامهم خاصة بما يناسب حالهم واستعدادهم، وأراد إكمال الدين به، فجعله خاتم النبيين، وجعل رسالته عامة دائمة لا يحتاجون بعدها إلى وحي آخر»(٢).

ودون نفس النبي نفوس أخرى أدنى مرتبة، ومع ذلك تتلقى أيضاً من الأنوار الروحانية، والألطاف الربانية، ما لا ينكره إلا مكابر، أو محروم، وإذا ثبت ذلك فهو للأنبياء أولى وأجدر، يقول الإمام محمد عبده:

«وأما أرباب النفوس العالية، والعقول السامية من العرفاء، ممن لم تدن مراتبهم من مراتب الأنبياء، ولكنهم رضوا أن يكونوا لهم أولياء، وعلى شرعهم ودعوتهم أمناء، فكثير منهم نال حظه من الأنس، بما يقارب تلك الحال في النوع أو الجنس، لهم مشارفة في بعض أحوالهم على شيء في عالم الغيب، ولهم مشاهد صحيحة في عالم المثال، لا تنكر

(١) رسالة التوحيد ص٧١، ٧٢، قارن: أصول العقيدة الإسلامية ص١٧١، ١٧٢.
(٢) ينظر: الوحي المحمدي ص٧٧.

عليهم؛ لتحقق حقائقها في الواقع، فهم لذلك لا يستبعدون شيئاً مما يحدث به عن الأنبياء عليهم السلام ومن ذاق عرف، ومن حرم انحرف»[١].

فظهور الأحوال على أصحاب المقامات من الأتقياء والصالحين، وإكرام الله لهم ببعض الكرامات، من خوارق العادات، ومعرفة بعض المغيبات، أمر ثابت لكل ذي عينين، وهم بسلوكهم ومعجزاتهم، يجعلون الناس يصدقون بالأنبياء، ويعترفون بأن ما جاءوا به من عند الله هو الحق؛ ليزداد الذين آمنوا إيماناً ويحق العذاب على المعاندين والكافرين.

والدليل على أن هؤلاء هم أولياء للأنبياء، وإفاضة الله عليهم من أنواع المكاشفات:[٢]

«ظهور الأثر الصالح منهم، وسلامة أعمالهم مما يخالف شرائع أنبيائهم، وطهارة فطرهم مما ينكره العقل الصحيح، أو يمجه الذوق السليم، واندفاعهم بباعث من الحق الناطق في سرائرهم، المتلألئ في بصائرهم إلى دعوة من يحف بهم إلى ما فيه خير العامة، وترويح قلوب الخاصة، ولا يخلو العالم من متشبهين بهم، ولكن ما أسرع ما ينكشف حالهم، ويسوء مآلهم ومآل من غرروا به، ولا يكون لهم إلا سوء الأثر في تضليل العقول وفساد الأخلاق، وانحطاط شأن القوم الذين رُزِئوا بهم، إلا أن يتداركهم الله بلطفه، فتكون كلمتهم الخبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار، فلم يبق بين المنكرين لأحوال الأنبياء ومشاهدهم، وبين الإقرار بإمكان ما أنبئوا به وبوقوعه، إلا

---

(١) رسالة التوحيد ص٦٠.

(٢) ينظر: العقيدة الإسلامية والأخلاق ص١١٩.

حجاب من العادة، وكثيراً ما حجب العقول حتى عن إدراك أمور معتادة»[١].

وأما المحور الثاني: وهو وجود ملك يبلغ الوحي ليبلغه الأنبياء بدورهم إلى الناس: فمما لا استحالة فيه بعد ما عرفنا من أنفسنا وأرشدنا إليه العلم قديمه وحديثه، من اشتمال الوجود على أشياء أثيرية لطيفة ألطف من المادة، وأخف منها وإن غيبت عنا وخفيت علينا، فأي مانع من أن يكون بعض هذا الوجود اللطيف مشرقاً لشيء من العلم الإلهي، وأن يكون لنفوس الأنبياء إشراف عليه، فإذا جاء به الخبر الصادق حملنا على الإذعان بصحته[٢].

لقد قام الدليل العقلي على وجود الروح الإنسانية، وتصرفها في الجسد، وإمدادها إياه بالحركة والحياة والعقل، فما المانع من وجود مخلوقات روحانية صرفة تكون واسطة بين الله ﷻ وأنبيائه، ولا يقدح في وجودها أنا لا نراها؛ فإن من الموجودات المادية ما لا نراه، كالأثير، والجراثيم، والميكروبات[٣] التي لا ترى بالعين المجردة، فالعقل لا يقضي باستحالة وجود الملائكة، وبخاصة بعدما أخبرنا الرسول الصادق بوجودهم.

والحق أن طريق معرفة الملائكة السمع، وما قدمناه من دليل على وجودهم من قبيل الإمكان العقلي، فهو ليس أمراً مستحيلاً كما يدعي بعض الملحدين[٤] فقد علم بالاضطرار من دين المسلمين أن جبريل عليه السلام ملك حي متكلم، كان ينزل على النبي ﷺ

(١) رسالة التوحيد ص٦٠.

(٢) ينظر: رسالة التوحيد ص٥٩.

(٣) سنبين ذلك بتفصيل أكبر عند حديثنا عن الأدلة العلمية التي تثبت إمكان الوحي ص١٣٩٢، من البحث.

(٤) ينظر: العقيدة الإسلامية والأخلاق ص١١٨.

بالوحي، ليس هو مجرد ما يتخيل في نفسه، قال ﷻ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢٣﴾﴾[1] فأخبر أنه عليه السلام رسول كريم، ذو قوة عند ذي العرش، وأنه مطاع هناك أمين[2].

كما قامت الأخبار المتواترة بمجيء الملائكة في صورة البشر[3] «فالأنبياء يشاهدون الملائكة؛ وذلك لأن الله قوى أرواحهم لتقوى على رؤيتهم، وجعل علاقة أبدانهم بأرواحهم على غير المألوف لدى الناس، فالله ﷻ يختصهم بصفات لا تكون في الناس، وهذه الصفات هي التي تكون دليلاً على أن الله ﷻ اختارهم لتبليغ شرائعه إلى الناس»[4].

اعتراض: اعترض بعض منكري الوحي على وجود وسائط بين الله ﷻ وبين خلقه من الملائكة وغيرهم؛ لأنهم ينكرون الروحانيات ولا يعتقدون بوجود أي شيء غير مادي لا يرى أو يحس، قالوا: «إن من يلقى إليه أي إلى النبي الوحي، إن كان جسمانياً وجب أن يكون مرئياً لكل من حضر حال الإلقاء، وليس الأمر كذلك كما اعترفتم به،

(١) التكوير.

(٢) ابن تيمية/ أبو العباس أحمد بن عبد السلام بن عبد الحليم الحراني «درء تعارض العقل والنقل» ١٠/ ٢١٧، ت/ عبد اللطيف عبد الرحمن، ط/ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ سنة ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م.

(٣) ابن تيمية «الرد على المنطقيين» ص٤٩٠، وقد بينا ذلك عند الحديث عن أنواع الوحي.

(٤) ينظر: العقيدة الإسلامية والأخلاق ص١١٨.

وإلا - أي: وإن لم يكن جسمانياً بل روحانياً -كان كذلك أي: إلقاء الوحي بطريق التكليم منه مستحيلاً؛ إذ لا يتصور للروحانيات كلام»[١].

إنهم من ناحية لا يتصورون نزول الملك الذي يحمل الوحي إلى النبي؛ لعدم إمكان خرق السماء في نظرهم، كما أنهم من ناحية أخرى ينكرون كل ما لا يقع عليه الحس، ويزعمون أن المغيبات لا وجود لها، ومن ثم ينتهون إلى قضية لا يشاركهم فيها إلا من أخذ بمذهبهم، وهي أن الوجود كله مادي فقط[٢].

ويرد على هذا القول إجمالاً بأن يقال: «يجوز أن يكون الملقِي جسمانياً، ولا يخلق الله رؤيته في الحاضرين؛ فإن قدرته لا تقصر عن شيء»[٣] فهناك من الأشياء المادية الموجودة في حياتنا ولا نشاهدها، فالذرات التي تحيط بنا من كل جانب، والكلام الذي ينتقل إلينا عبر الأثير، والصورة التي نراها تنقل إلينا عبر الفضاء، كل هذه شواهد حديثة تؤكد إيصال الكلام من مواد ما كان يتصور منها نطق، فما بالنا بقدرة الله ﷻ الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

وتفصيلاً: بأن هذا تصور ناقص للوجود؛ إذ إن الوجود الحقيقي له جانبان: أحدهما مادي، والآخر معنوي، والثاني آكد من الأول في درجة الوجود، والشعور به مسألة فطرية لا يمكن إنكارها، وعدم اعترافهم به لا يعني صحة ما ذهبوا إليه، فعدم علمهم إلا بوجه واحد لهذا الوجود لا يعني عدم الآخر[٤].

---

(١) شرح المواقف ٨/ ٢٥٥، قارن: غاية المرام ص٣٢٠.

(٢) ينظر: أصول العقيدة الإسلامية من الكتاب والسنة ص١٥٨.

(٣) شرح الموقف ٨/ ٢٥٦.

(٤) ينظر: أصول العقيدة الإسلامية ص ١٥٨.

فمن المقرر عقلاً أن عدم العلم ليس علماً بالعدم، فعدم الوجدان لا يدل على عدم الوجود، أي: لا يثبت عدمه، وكذلك عدم الدليل لا يستلزم عدم المدلول؛ فإن كل ما خلقه الله دليل عليه، كما أن عدم الخلق لا يلزم منه عدم الخالق؛ ولذا لا يجوز نفي الشيء لعدم الدليل عليه، إلا أن يكون عدم الدليل مستلزماً لعدمه، وهو معلوم البطلان؛ فعدم علمنا بالحقائق لا ينفي ثبوتها في أنفسها، وعدم الوجدان لا يستلزم عدم الوجود، إلا إذا كان الطالب ممن يمكنه ذلك، إما بعلم أو ظن غالب [1] وما لهم بذلك من علم ولا غالب ظن، بل هو الظن بما تهوى الأنفس.

ومن ثم .. فإن إنكار الوجود المعنوي بغير دليل تحكم لا يقبل في مقام البحث العلمي، ولعلنا نرى أن اللوازم التي أنكرها هؤلاء، والتي لا تتم النبوة إلا بها، من نزول الملك، وامتناع خرق السماء... الخ، لم يقل بإنكارها سواهم، مع أنها أمور ممكنة في ذاتها، والعلم التجريبي الحديث ـ على ما سنبين ـ لهو خير شاهد على صحة كثير مما أنكروه[2].

بل إن الفلاسفة أنفسهم يجيزون اتصال الروحاني بالجسماني، إما أن يكون عن طريق العقل، أو طريق القوة المتخيلة في الإنسان، حيث ترقى الأرواح القدسية لتلقي الأنوار الإلهية، التي تفيض عليها بأنواع من المعارف والغيبيات، وهذا الاتصال عندهم يحدث ليلاً ونهاراً، وبه فسروا النبوة، فهو مصدر الرؤيا الصادقة والوحي، وإن كان طريق

---

(١) ينظر: ابن تيمية/ أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام الحراني «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح» ٤/ ٤٦٠، ٦/ ٤٦٩، ت/ علي سيد صبح المدني، ط/ مطبعة المدني ـ مصر، درء التعارض ١/ ٨٧، الرد على المنطقيين ص١٠٠، ١٣٩.

(٢) ينظر: د/ نصار، أصول العقيدة الإسلامية، ص ١٧١.

إثبات الاتصال عند الفلاسفة مباين لما عرف في الشرع، بيد أن النتيجة واحدة، فثمة اتفاق على وجود الروحانيات واتصالها، أو اتصال الجسمانيات بها.

وبعد ثبوت الوجود الروحاني بجانب الجسماني، يتبين لنا إن إنكار هذا الشق دعوى بلا دليل، بل إنهم أخذوا الدعوى في الدليل، وهذه مصادرة على المطلوب لا يقرها العقل والمنطق[١].

وأما المحور الثالث وهو: تفاوت فطر البشر في الاستعداد لتلقي الإلهامات الإلهية: فمما شهدت به البديهة أن درجات العقول متفاوتة يعلو بعضها بعضا، وأن الأدنى منها لا يدرك ما عليه الأعلى إلا على وجه من الإجمال، فالبليد - مثلاً - لا يقدر على ما فهمه متوسط الذكاء، والأخير لا يستطيع أن يدرك إدراك الذكي السريع الفهم، ولا يرجع ذلك إلى تفاوت المراتب في التعليم فقط، بل لا بد معه من التفاوت في الفطر التي لا مدخل فيها لاختيار الإنسان وكسبه، ولا شك في أن من النظريات عند بعض العقلاء ما هو بديهي عند من هو أرقى منه عقلاً، وإن من أرباب الهمم وكبار النفوس ما يرى البعيد عن صغارها قريبا فيسعى إليه ثم يدركه، والناس دونه ينكرون بدايته ويعجبون لنهايته، ثم يألفون ما صار إليه كأنه من المعروف الذي لا ينازع، فإذا أنكر منكر ثاروا عليه ثورتهم في بادئ الأمر على من دعاهم إليه، ولا يزال هذا الصنف من الناس على قلته ظاهراً في كل أمة إلى اليوم[٢].

فإذا سلمنا بهذه المقدمات فمن ضعف العقول، والنكول عن النتيجة اللازمة لمقدماتها ألا نسلم بأن من النفوس البشرية ما يكون لها من نقاء الجوهر بأصل الفطرة، ما

---

(١) ينظر: أصول العقيدة الإسلامية، ص ١٧٢.

(٢) ينظر: رسالة التوحيد ص٥٨، العقيدة الإسلامية والأخلاق ص١١٧.

تستعد به من محض الفيض الإلهي لأن تتصل بالأفق الأعلى، وتنتهي من الإنسانية إلى الذروة العليا، وتشهد من أمر الله شهود العيان ما لم يصل غيرها إلى تعقله، أو تحسسه بعصى الدليل والبرهان، وتتلقى عن العليم الحكيم ما يعلو وضوحاً على ما يتلقاه أحدنا عن أساتذة التعاليم، ثم تعليم ما علمت، ودعوة الناس إلى ما حملت على إبلاغه إليهم[1].

ويدل أيضاً على اختصاص بعض النفوس بميزات عقلية أو روحية، وسياحتها في العالم العلوي، واطلاعها على بعض المغيبات: «ما نشاهده في بعض الناس، فإنه قد يقل شواغله البدنية، وينصرف عن اشتغاله بمتعلقات حواسه الظاهرة، بسبب يبوسة تغلب على مزاجه، أو لأمر ما بحيث يصير كالمبهوت، وحينئذ قد يرى من الصور، ويسمع من الأصوات حسب ما يراه النائم في منامه، وإن كان مستيقظاً، بل ومثل هذا قد وجد لبعض المرضى والمصروعين وبعض المتكهنين، والمقصود من هذا إنما هو التقريب بالمثال، وإلا فهذه صفة نقص، والأولى صفة تمام وكمال»[2].

فإذا وقع هذا لبعض الشخوص المريضة، فهو للنفوس العالية من باب أولى فقد خصها الله ﷻ بكمالات هيأتها لعلم حقائق الأشياء، وهذا النوع من تعليم العليم الحكيم، لا يتوصل إليه بمجرد الذكاء أو العبقرية، أو صنوف المجاهدات، بل بمحض فيض من ذي الملك والملكوت ﷻ يطلعهم على جملة من علوم الغيب، فينسلخون من العالم الجسماني إلى عالم الملكوت في لحظات الوحي إليهم، فيطلعهم على أمور من غيبه، لا

---

(١) ينظر: رسالة التوحيد ص٥٨، ٥٩.

(٢) غاية المرام، ص٣٢٥.

يطلع عليها سواهم ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ..﴾[١]، فهم سرج الهدى؛ إذ تفيض بواسطتهم أنواع المعارف على الخلائق[٢].

لقد تبين لنا بالأدلة والحجج العقلية والمنطقية من مناظير شتى أن الوحي أمر ممكن لا استحالة فيه بوجه من الوجوه، لا من حيث الملقِي ﷻ الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، ولا من جهة المتلقي؛ إذ تتعلق به قدرة القادر، وأمثلة الاتصال الروحاني كثيرة لا تحصى ثابتة بالعلم التجريبي الحديث – كما سنرى –، وشهود بعض النفوس لمراقي الفلاح، واطلاعها على عالم الأرواح، مما يغلق المجال أما جدال المجادلين، أو عناد المنكرين.

المحور الرابع: تضافر الأدلة العلمية على إمكان حصول الوحي: لقد ألمحنا فيما سبق إلى وجود أناس قد ميزوا بميزات خاصة ليست لغيرهم من البشر، ووقوع بعضهم تحت مؤثرات عدة، تفيض عنهم أموراً يعجب لها العقلاء، بالإضافة إلى ظهور مبتكرات من العلم الحديث، تجعل تصور حصول الوحي أمراً عادياً.

ومع ذلك يجمل بنا أن نذكر بعضاً من أدلة العلم الحديث، والتي لا تدع مجالاً للشك ـ بعدها ـ في أن حصول الوحي أمر لا يستبعده علم أو عقل؛ إذ إن ما يحدث من عجائب البشر لا يعادل نقطة في بحر من بديع صنع خالقهم، بل إن ذلك مما يضاف إلى قدرة المولى ﷻ الذي أقدر مخلوقيه على ما أتوا وأبدعوا.

---

(١) الأنعام: ٥٩.

(٢) قارن: العقيدة الإسلامية والأخلاق ص١١٧.

الدليل الأول:

التنويم الصناعي، أو التنويم المغناطيسي، وهو من المقررات العلمية الثابتة، أزاح النقاب عنه الدكتور «مسمر» الألماني (١٧٧٠م)، فأعلن أنه اكتشف سيالا حيويا في الإنسان اسماه المغناطيس الحيواني، وجاهد هو وأتباعه في تحقيق وجود هذا السيال ومعرفة خصائصه بواسطة التنويم المغناطيسي، وقد نجحوا في ذلك نجاحاً كبيراً، فاعترف العلماء به علمياً[(١)]، بعد أن اختبروا به الآلاف المؤلفة من الخلق واطمأنوا إلى تجاربه، وأثبتوا بوساطته ما يأتي:

١ – أن للإنسان عقلاً باطناً أرقى من عقله المعتاد كثيراً.

٢ – أنه وهو في حال التنويم يرى ويسمع من بعد شاسع، ويقرأ من وراء حجب، ويخبر عما سيحدث مما لا يوجد في عالم الحس أقل علامة لحدوثه.

٣ – أن للتنويم درجات بعضها فوق بعض، يزداد بها العقل الباطن سمواً بتنقله فيها.

٤ – أنه قد يصل إلى درجة تخرج فيها روح الوسيط من جسده، وتمثل إلى جانبه غير مرئية، بينما يكون الجسم في حالة تشبه الموت، لولا علاقة خفية بين الروح والجسم.

٥ – أثبتوا من وراء ذلك أن ثمة روحاً، مستقلة عن الجسم كل الاستقلال، وأن هذه الروح لا تنحل بانحلاله.

٦ – أنها تتصل بالأرواح التي سبقتها إذا تجردت عن المادة.

إلى غير ذلك مما لا نسلم جميع تفاصيله تقليداً، وإن كنا نسلم هذا العلم وتجاربه ومقرراته في الجملة؛ لثبوت الدليل بها في الجملة أيضاً بواسطة التجارب العديدة،

---

(١) ينظر: الإسلام دين عام خالد، ص١٦، ١٧.

والمشاهدات الكثيرة، وله في الغرب أنصار من علماء وطلاب، وله دور وكتب، وله مستشفيات يؤمها الناس للتداوي به[١].

وقد ثبت بهذه التجارب إمكان تأثير روح المنوِّم في روح أخرى، بدون تداخل جسماني يراه الحاضرون، ومن هنا وجد العلماء ارتباطًا كبيرًا بين علم الأرواح، وعلم التنويم المغناطيسي، وعلم التخاطر، وهو علم نقل الأفكار عن بعد، وأيضًا علوم دراسة الأشباح والجن، وقد دخل هذا العلم اليوم مجال العلاج الطبيعي، وبخاصة الأمراض التي عجز الطب عن شفائها، مثل الصرع والجنون والشيزوفرينيا[٢].

ولعل هذا يعطينا تعليلاً علمياً لما يحدث في حالة الوحي[٣]، فالوحي عن طريق الملك - كما بينا سلفاً - عبارة عن اتصال الملك بالرسول اتصالاً يؤثر ويتأثر به أحدهما بالآخر، وذلك باستعداد خاص في كليهما، فالأول فيه قوة الإلقاء والتأثير؛ لأنه روحاني محض، والثاني فيه قابلية التلقي عن هذا الملك لصفاء روحانيته، وطهارة نفسه المناسبة لطهارة الملك؛ ولذلك فإنه عند تسلط الملك على الرسول ينسلخ الرسول عن حالته العادية، ويظهر أثر التغير عليه، ويستغرق في الأخذ والتلقي عن الملك، ويطبع ما تلقاه في نفسه، حتى إذا انجلى عنه الوحي، وعاد إلى حالته الأولى، وجد ما تلقاه ماثلاً في نفسه، حاضراً

---

(١) ينظر: مناهل العرفان ١/ ٤٨، الإسلام دين عام خالد، ص١٧، قارن: النبأ العظيم، ص١٠٤، ١٠٥.

(٢) الفنجري/ د. محمد شوقي «القرآن والطب الحديث»، ص٤٦، ط/ الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٠م.

(٣) يجب ألا يخفى علينا الفارق الهائل والبون الشاسع بين حالة الوحي، وهذه الحالات التي معظمها حالات مرضية، تحتاج إلى علاج، كما أن بعض هذه التداخلات بين الأرواح أو الأفكار قد يكون لها مردود سلبي على الإنسان، بخلاف حالة الوحي، التي أسلفنا الحديث عنها.

في قلبه، كأنما كَتَبَ في صحيفة فؤاده كتاباً[١].

ولقد عرض العلماء لهذه الأنواع من التأثيرات، ومنها أن أمواجًا تصدر من المخ وتنتشر في العالم أجمع بسرعة فائقة، وسموها بنظرية الموجة المخية، يقول وحيد الدين خان: «إنه لما كان الإنسان يستطيع تحويل الأفكار بأكملها إلى إنسان آخر، على بعد غير عادي، وبدون استعمال أي واسطة مادية ظاهرية، فلماذا تستحيل نفس العملية بين الإله وعباده؟ إن هذا المظهر من كفاءة قوي الإنسان-وأمثلته كثيرة لا تحصي- ليس إلا قرينة تجريبية تجعلنا نفهم علاقة الألفاظ والمعاني التي تربط العبد بالإله عندما يرسل رسالاته.

إن الإشراق أمر معروف لدي الناس وهو يدلنا على فهم ذلك النظام الإشراق العظيم بين الإله والعباد، والذي يكون في أكمل صوره حين يبلغ درجة (الوحي) وهذا الوحي لا يعدو أن يكون (إشراقا كونيا)، من نوع الإشراقات التي عهدناها في حياتنا على مستويات محدودة»[٢].

وبعد هذا الإيضاح والبيان فإن من يذهل اليوم عن وجود عالم الغيب، وتأثيره الأكبر في الكون، «ومن ينكر العقل الباطن، ويتشكك في اتصاله بالعالم الروحاني مباشرة، ومن لا يقول بأن للإنسان حياتين، حياة عادية هي ما هو عليه اليوم في حالته المعهودة، وحياة روحانية يجليها التنويم المغناطيسي، بما لا يدع للإنسان شبهة، ولا يعترف بأن الإنسان في حياته الروحانية يعيش في عالم يذخر بالحقائق والمعارف السماوية، فينال منها على قدر استعداده، ويؤديه لعقله العادي، محاولًا إعداده للترقي والتكمل،

(١) ينظر: مناهل العرفان في علوم القرآن ١/ ٥٠، قارن: النبأ العظيم، ص١٠٥.

(٢) خان/ وحيد الدين «الإسلام يتحدى» ترجمة/ ظفر الدين خان، مراجعة وتقديم: د. عبد لصبور شاهين، ص١٠٦، الناشر/ مكتبة المدينة المنورة – القاهرة – ط/ ١، ١٤٣١هـ – ٢٠١٠م.

قلنا إذا كان في الناس من ينكر هذا فليس لنا من وسيلة لإقناعه إلا بلفته للتوسع في قراءة ما كتبه العلماء الباحثون في مسألة التنويم المغناطيسي، والعقل الباطن على الأسلوب العلمي الصارم، فإذا كان من الناس من يتجرأون على التكذيب بهذه الحقائق، مع إعفاء أنفسهم من الاطلاع على ما كتب فيها، فهؤلاء أمة وحدهم، وليس يضير الحقائق أن يجافيها عدد محصور من الجامدين»[1].

الدليل الثاني:

الأبحاث الحديثة التي أجريت حول الروح، والتي اعترفت بوجودها وتأثيرها، وإن لم ندركها بحاستي السمع والبصر، وقد عُرفت الروح -في نظر العلم الحديث- بأنها عبارة عن موجات ذات تردد عال، وأنها موجودة بيننا في كل مكان، وفي العالم الأثيري، ولكننا لا نراها ولا نسمعها بسبب عجز العين البشرية والأذن عن ذلك.. فقد ثبت علميًا أن العين البشرية لا ترى إلا في حدود معينة، هي ألوان الطيف، وقد قدر العلماء الأرواح أنها أعلى من الأشعة البنفسجية، وأقل من السينية؛ فهي لا ترى ما فوق البنفسجية وما تحت الحمراء، فنسبة ما تراه العين البشرية إلى ما لا تبصره هو ١ : ١٠ مليون، وهي نسبة مهولة جدًا، ما كان يتصورها أو يعقلها أحد وقت نزول القرآن[2].

كما أن الأذن البشرية تسمع فقط من ٢٠ ذبذبة في الثانية، وحتى ٢٠ ألف ذبذبة، فما قل عن ذلك أو زاد لا نستطيع أن نسمعه، وقد ثبت بالتجربة أن بعض الحيوانات

---

(١) الإسلام دين عام خالد، ص١٧، ١٨.

(٢) ينظر: القرآن والطب الحديث ص٤٦، ٤٩، وصدق الله العزيز الذي ذكر هذه الحقيقة قبل مئات السنين، فقال: ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ٣٨ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ٣٩ ﴾ [الحاقة].

كالكلاب والقطط والخيول، تسمع أكثر مما يسمعه الإنسان؛ ولذلك نراها تصرخ فجأة عندما سمع أشياء لا يدركها سمع البشر[1].

لقد اخترع الإنسان آلات كثيرة أثبتت أنها تسطيع إدراك كثير جدا من الأحداث التي لا يمكننا سماعها بالطرق السمعية التقليدية، وهذه الطاقة غير العادية للسماع لا تخص الآلات العلمية الحديثة ، وإنما وهبها الله لبعض الحيوانات أيضا، ومما لا شك فيه أن جهاز سماع الإنسان محدود جدا، ولكن أجهزة بعض الحيوانات تختلف كل الاختلاف؛ فالكلب مثلا، يستطيع أن يشم ريح الحيوان الذي مر من الطريق، ومن ثم استغلت الكلاب في البحث عن الجرائم والمجرمين، وهناك حيوانات كثيرة تسمع أصواتا تخرج عن نطاق أسماعنا، ولقد أثبتت البحوث في هذا الميدان أن بعض الحيوانات يتمتع بقوة (الإشراق) Telepathy. فلو أنك وضعت حشرة مما يطلق عليه (Moth)، أو (العثة)، فستحدث صوتا يسمعه زوجها على مسافة بعيدة جدا، ولسوف يجيبها هذا الزوج أيضا بطريقته.

وهناك نوع خاص من هذه الحشرات يدعي (الجندب)، يحك رجليه وجناحيه ويصوت بطريق غير عادية، ويسمع على مبعدة نصف ميل وهو يحرك في هذه العملية ستمائة طن من الهواء، ليدعو زوجه، وهذه الزوج ترسل أيضا وهي ساكنة بلا حراك جوابا لا نعرفه، إنما يعرفه الجندب الذكر ثم يلحق بها أينما كانت.

وقد أثبتت البحوث أيضا أن (أبو النطيط) العادي Grasshoper لديه قدرة خارقة على السماع، حتى إنه يستطيع أن يسمع ويحس الحركة التي تحدث في نصف قطر

---

(١) ينظر: المرجع السابق، ص٤٦.

من ذرة الهيدروجين!

وهناك أمثلة أخري كثيرة، تؤكد إمكان وجود وسائل غير مرئية لدي ذوي الحواس الخاصة[١]؛ فإننا نشاهد بعض الحيوانات الدنيا تأتي بعجائب الأنظمة والأعمال، مما نحيل معه أن يكون صادراً عن تفكير لها، أو غريزة ساذجة فيها، ومما يجعلنا نوقن بأنها لم تصدر في ذلك إلا عن إرادة عليا توحي إليها، وتلهمها تلك العجائب والغرائب من الصناعات، والأعمال، والدقة، والاحتيال.

ومن أمثلة تلك الحيوانات التي أتقنها الباري ﷻ في إلهاماته العلوية: النمل والنحل، وما تأتيان من ضروب الأعمال، ودقة النظام، وإذا صح هذا في عالم الحيوان، فهو أولى أن يصح في عالم الإنسان؛ حيث استعداده للاتصال بالأفق الأعلى يكون أقوى، وأخذه عنه يكون أتم، ومن ذلك ما يكون بطريق الوحي[٢].

---

(١) ينظر: الإسلام يتحدى، ص١٠٣، ١٠٤، ولقد بينت الأحاديث النبوية أن هناك أشياء كثيرة تسمعها كائنات عديدة سوى الإنسان، ومن ذلك روح الميت، فقد روي عن أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ ﷺ قال كان النبي ﷺ يقول: «إذا وُضِعَتْ الْجِنَازَةُ فَاحْتَمَلَهَا الرِّجَالُ على أَعْنَاقِهِمْ فَإِنْ كانت صَالِحَةً قالت قَدِّمُونِي وَإِنْ كانت غير صَالِحَةٍ قالت لِأَهْلِهَا يا وَيْلَهَا أَيْنَ يَذْهَبُونَ بها يَسْمَعُ صَوْتَهَا كُلُّ شَيْءٍ إلا الْإِنْسَانَ وَلَوْ سمع الْإِنْسَانُ لَصَعِقَ». أخرجه البخاري في صحيحه، كِتَاب الْجَنَائِزِ، بَاب قَوْلِ الْمَيِّتِ وهو على الْجِنَازَةِ قَدِّمُونِي، (١/ ٤٤٣)، برقم: (١٢٥٣)، وعن أبي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ النبي ﷺ قال: «إذا سَمِعْتُمْ صِيَاحَ الدِّيَكَةِ فَاسْأَلُوا اللهَّ من فَضْلِهِ فَإِنَّهَا رَأَتْ مَلَكًا وإذا سَمِعْتُمْ نَهِيقَ الْحِمَارِ فَتَعَوَّذُوا بِاللهَّ من الشَّيْطَانِ فإنه رَأَى شَيْطَانًا»، أخرجه= =البخاري في صحيحه، كِتَاب بَدْءِ الْخَلْقِ، بَاب خَيْرُ مَالِ الْمُسْلِمِ غَنَمٌ يَتْبَعُ بها شَعَفَ الْجِبَالِ، (٣/ ١٢٠٢)، برقم: (٣١٢٧)، ومسلم في كِتَاب الذِّكْرِ وَالدُّعَاءِ وَالتَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ، بَاب اسْتِحْبَابِ الدُّعَاءِ عِنْدَ صِيَاحِ الدِّيكِ، (٤/ ٢٠٩٢)، برقم: (٢٧٢٩).

(٢) ينظر: مناهل العرفان في علوم القرآن ١/ ٥٠، ٥١.

وإذا كان الأمر كذلك فما وجه الغرابة في ادعاء إنسان أنه يسمع صوتا من لدن ربه، لا يدركه عامة الناس، ما دام من الممكن أن توجد في هذا العالم حركات وأصوات لا تسمعها آذان الإنسان، ولكن تسجلها الآلات؟ وما دامت هناك رسائل تدركها حيوانات دون أخري؟

إن الله تعالي- لحكمة يعلمها - يرسل رسائله بوسائل خافتة خفية إلى الإنسان المختار للرسالة بعد أن يودع فيه صلاحية التقاطها وفهمها، فليس هناك من تصادم في الحقيقة، بين مشاهداتنا وتجاربنا العلمية، فهو واقع من الوقائع الكثيرة التي نشاهدها ونجربها في أمكنة وطرق مختلفة فالوحي إمكان وجدناه في شكل الواقع بعد التجربة..

فكيف يستحيل وقوع هذه العملية نفسها بين العبد وربه؟ إننا بعد الإيمان بالله، والاطلاع علي هذه التجارب الكثيرة، لا نجد أساسا لإنكار الوحي والإلهام[1].

لقد أجريت العديد من البحوث ومنها ما نسميه (بالبحوث الروحية)، «وهي فرع من علم النفس الحديث، وهدفها محاولة الكشف عن المميزات الإنسانية غير العادية، وقد أقيم أول معهد لإجراء هذا النمط من البحوث عام ١٨٨٢م في انجلترا وبدأ علماء المعهد عملهم سنة ١٨٨٩م، بعد أن قاموا بمسح واسع النطاق على ١٧ ألفا من المواطنين، ولا يزال هذا المعهد موجودا باسم (جمعية البحوث الروحية). وقد انتشرت الآن معاهد كثيرة في مختلف بلدان العالم، وأثبتت هذه المعاهد بعد بحوثها وتجاربها الواسعة النطاق، أن الشخصية الإنسانية تواصل بقاءها بعد فناء الجسد المادي، في صورة غريبة»[2].

---

(١) ينظر: الإسلام يتحدى، ص١٠٤، ١٠٥.

(٢) الإسلام يتحدى، ص٩٨، ٩٩.

وهذا ما يعرف بعالم البرزخ، والذي تنتقل فيه الروح بسرعة كبيرة جدا، قدرها أحد علماء المسلمين المعاصرين[١]، بأنها خمسون مرة سرعة الضوء، فقد توصل إلى معادلة حسابية، معتمدًا على آيتين من كتاب الله، الأولى قوله تعالى: ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٥ ﴾[٢]، أي أن المسافة التي يقطعها الأمر الكوني في زمن يوم أرضي تساوي في الحد والمقدرة المسافة التي يقطعها القمر في مداره حول الأرض، وهو ألف سنة أرضية، وبحل هذه المعادلة القرآنية ينتج لنا سرعة ٣٩٩،٧٩٢،٥ كم/ ث، مساوية لسرعة الضوء في الفراغ المعلن دوليًا، والمتفقة مع مبدأ «أينشتاين».

أما الآية الثانية، وهي قوله تعالى: ﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝٤ ﴾[٣]، وهي تتحدث عن سرعة الروح والملائكة في عالم الغيب، وتقدره بأنها تعادل خمسين مرةx السرعة السابقة، أي خمسين مرة سرعة الضوء، أي أنها تساوي ٣٩٩،٧٩٢،٥x ٥٠كم[٤].

الدليل الثالث:

يؤكد العلماء اليوم على وجود حقائق علمية غير مشاهدة قطعيًا، فلا يمكن أن يخطو أي عالم خطوة دون الاعتماد على ألفاظ مثل: القوة، والطاقة، والطبيعة، وقانون الطبيعة،

(١) وهو الدكتور/ منصور حسب النبي أستاذ الفيزياء بجامعة عين شمس في كتابه: «الإعجاز العلمي في القرآن الكريم». ينظر: القرآن والطب الحديث، ص٥٢.

(٢) السجدة.

(٣) المعارج.

(٤) ينظر: القرآن والطب الحديث، ص٥٢.

وما إلى ذلك، تماما كعالم الدين الذي لا يستطيع تفسير صفات الإله على الحقيقة، وكلاهما يؤمن – بدوره – بعلل غير معلومة، يقول البروفسير «ماندير»: «إن حقائق الكون لا تدرك الحواس منها إلا القليل، فكيف يمكن أن نعرف شيئًا عن الكثير الآخر؟ هناك وسيلة وهي الاستنباط أو التعليل، وكلاهما طريق فكري، نبتدئ به بوساطة حقائق معلومة، حتى تنتهي بنظرية: أن الشئ الفلاني يوجد هنا، ولا نشاهده مطلقًا»[١].

ومن هذه الحقائق العلمية ما نراه اليوم ماثلًا أمام ناظرينا من عجائب المخترعات التي نفعت البشرية نفعًا عظيمًا، كالكهرباء[٢]، التي لا تراها العين، ولا تسمعها الأذن بل تحس بها وتشعر بآثارها، والتلغراف[٣]، واللاسلكي[٤]، والتليفون، والميكرفون، والراديو، وغير ذلك كثير من مبتكرات، مكنت الإنسان أن يخاطب من كان في آفاق بعيدة، وأن يفهمه ما شاء، ويرشده لما أراد.

---

(١) ينظر: الإسلام يتحدى، ص٣٣، ٣٤.

(٢) اكتشفه العالم الأمريكي «جوزيف هنري» في القرن الثامن عشر الميلادي، ينظر: نيومان/ جيمس، ويلسون/ ميشيل، «رجال عاشوا للعلم»، ص١٣٧، ترجمة: أحمد شكري سالم، ط/ الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة، ٢٠٠١م.

(٣) اكتشفها العالم الأمريكي «بنيامين فرانكلين» في القرن التاسع عشر الميلادي، ينظر: المرجع السابق، ص١٨٢، وما بعد.

(٤) لقد أصبح الرجلان اليوم يكون أحدهما في أقصى المشرق، والآخر في أقصى المغرب، ثم يتخاطبان ويتراءيان، من حيث لا يرى الجالسون في مجلس التخاطب شيئا، ولا يسمعون إلا أزيزًا كدوي النحل الذي في صفة الوحي. ينظر: النبأ العظيم، ص١٠٤.

كما اكتشف مكونات الذرة من الإلكترون، والبروتون، والنيوترون[١]، ومن قبل اكتشف قانون الجاذبية الأرضية، الذي لا يمكن مشاهدته مطلقًا، وكل ما شاهده العلماء لا يمثل في ذاته قانون الجاذبية، وإنما هي أشياء أخرى اضطروا لأجلها – منطقيًا – أن يؤمنوا بوجود هذا القانون الذي يقول عنه «نيوتن» نفسه في خطاب أرسله لابنته: «إنه لأمر غير مفهوم أن نجد مادة لا حياة فيها ولا إحساس، وهي تؤثر على مادة أخرى، مع أنه لا توجد أي علاقة بينهما»[٢].

وكفى بذلك دليلًا وشهادة من مكتشف الجاذبية على وجود أشياء غير مادية، لها هذا التأثير العظيم على أشياء أخرى مادية في أصلها وحقيقتها.

فهل يعقل بعد قيام هذه المخترعات المادية أن يعجز الإله القادر عن أن يوحي إلى بعض عباده ما شاء عن طريق الملك، أو غيرها من الطرق – تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً –.

الدليل الرابع:

استطاع العلم الحديث اليوم أن يجعل من الجماد الأصم مادة مليئة بالصوتيات والمرئيات، واستطاع تسجيل صوت وصورة الإنسان، ونقلها من أقاصي المعمورة إلى أقصاها، فملأ من الاسطوانات الجامدة أصوات وأنغام، وقرآن، وكلام، حاكية له بدقة وإتقان، كالذي يسمونه بالفونوغراف، ثم تطورت هذه المخترعات، فظهر الكاسيت

---

(١) الإلكترون: جزئ صغير يحمل شحنة من الكهرباء السالبة، والبروتون: جزئ يحمل شحنة محددة من الكهرباء الموجبة، أم النيوترون فلا يحمل أي شحنة. ينظر: رسل/ برتراند «ألف باء النسبية»، ص٧٦، ترجمة فؤاد كامل، ط/ الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة، ٢٠٠٢م.

(٢) ينظر: الإسلام يتحدى، ص٣٥، وللمزيد من التعرف على قانون الجاذبية ينظر: ألف باء النسبية، ص١١١، وبراهينها ص١٢٩.

الصوتي والمرئي، ثم التلفاز والفضائيات، وشبكة المعلومات العالمية (الأنترنت) والهاتف الذكي، والبقية تأتي، مصداقاً لقول القدير ﷻ: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ .. ﴾[1].

فهذه جمادات صامتة تنطق بصوت وصورة مشاهدة يراها العالم اليوم، ويتعجب منها، ثم يتعود عليها، فلا تكاد تلفت نظره إلا بتجوال نظر وفكر، ومحاكاة خلق الله بما صنع البشر، فلعله يدير بصره قائلًا: إذا كان هذا من فعل البشر المخلوق من الإله الواحد، فما بالنا بما أبدع خالقهم، وذرأ وبرأ؟!. وهل بعد هذه المخترعات يتشكك الإنسان في قدرة الباري ﷻ أن يرسل بوساطة ملك، أو بغيره روحا من أمره ووحيًا من عنده، يملأ به قلوب خواص عباده، ممن اصطفاهم من البشر، فيطبعه في قلب رسوله، ليهدي به خلقه، فيبشر به المتقين، وينذر به قوما لدا؟!

الدليل الخامس:

قرر العلم الحديث أنه شوهد على بعض الناس أنهم يظهرون بمظاهر روحانية، تعتبر من الخوارق التي لم يكن يحلم بحدوثها العلماء، على حين أن هؤلاء الذين أتوا بتلك الظواهر الخارقة كانوا في حالة ذهول، وقد استحال تعليل ما أتوا تعليلاً مادياً يستند إلى الحس، وقد اختبروا تلك الظواهر، واستحضروا لشهودها أكبر مشعوذي الأرض، فشهدوا بأنها ليست من الشعوذة في شيء، وإنما هي أحداث روحانية، لا أثر فيها للمهارة وخفة اليد.

---

(١) فصلت: ٥٣.

تلك حقيقة من حقائق العلم الحديث الحاضر، يقررون فيها أنه قد يفتح على بعض الناس في حالة من حالات ذهولهم بانكشافات وظواهر روحية، فكيف يستبعد بجانب هذا الكشف العلمي أن يفتح الله على بعض الممتازين من خلقه بانكشافات علمية عن طريق الوحي، بينما هم من كملة العقول والأخلاق؟! لقد أسفر الصبح لذي عينين[1].

(١) ينظر: مناهل العرفان في علوم القرآن ١/ ٥٣.

خاتمة

الحمد لله كثيرا على توفيقه ومننه، وله الشكر وفيرا على إتمام نعمته وفضله، وله الرضا حتى يرضى، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وبعد/

فهنا وقفة نختم بها هذه الدراسة بأهم نتائجها، وهي:

١ - وحي الله ﷻ واحد لا يتفاوت قوة أو ضعفاً، ولا يتغير من نبي إلى نبي، وفي ذلك إشارة واضحة إلى وحدة المصدر الإلهي إلى جميع الأنبياء.

٢ - الوحي يكون إلى الأنبياء وإلى غيرهم من الخلق، فليس كل من أوحي إليه الوحي العام يكون نبياً، بل بمعناه الشرعي فقط، فمن أوحي إليه بشرع ليعمل به، فهو نبي، أو ليبلغه غيره فهو رسول، أو الاثنين معاً فهو نبي ورسول.

٣ - لا يتأتى الوحي بالاكتساب، فلن يكون أبداً عن طريق استعداد نفسي خاص، أو ممارسة رياضات معينة، أو كثرة عبادات ومجاهدات.. الخ، بل الله ﷻ يصطفي من يشاء من عباده ليوحي إليه ما يشاء.

٤ - الوحي روح الحياة البشرية وما به استقرارها واستقامتها على سواء السبيل، وهو لها كالنفس للبدن لا حياة له بدونها.

٥ - تعدد صور الوحي وأنواعه لتثبيت قلوب الأنبياء، وقد أوحي إلى نبينا ﷺ بجميع الأنواع والصور لثقل رسالته عن باقي الأنبياء؛ حيث إنها عامة لكل الخلق، باقية إلى قيام الساعة.

٦ – أكثر ما جاء في شريعة نبينا محمد ﷺ كان على لسان جبريل أمين وحي السماء، الذي كان يأتيه في أشكال متعددة؛ تكرمة لنبينا ﷺ وترويحاً لقلبه، وتثبيتاً له، وتخفيفاً عنه ﷺ.

٧ – شدة الوحي وثقله على النبي ﷺ حيث إنه قول رب العالمين، ولا قول أشد من قوله، وبه تفاصيل التكاليف، التي هي خلق الإنسان بسببها في كبد.

٨ – كيفية سماع الوحي ممتنعة بالنسبة لأهل السماء وأهل الأرض، فلا يعلمه إلا من أراد الله له أن يعلم ممن اصطفاهم من الملائكة أو الناس، فهو ﷻ أعلم حيث يجعل رسالته.

٩ – الوحي ممكن عقلاً واقع شرعاً، ومن يماري في ذلك لأنه ـ لا يقع في دائرة المحسوس ـ فإنما يخالف بداهة العقول، فضلاً عن مناقضة الحس ذاته؛ فقد ثبت بالحس وقوع أشياء لم تكن مدركة به، ولكن العلم الحديث أثبت وجودها، فليس كل ما لا يدركه الحس غير موجود، غاية ما هنالك أنه لم يحن بعد أوان ظهوره للعيان.

١٠ – قيام العلم الحديث على قضايا غيبية، وتسليمه بها مع أنها غير مشاهدة للإنسان، ولكنه يشعر بآثارها، وكذلك الوحي لا نراه، ولكن أثره في الكون هائل عظيم.

١١ – مدى ضعف الإنسان في قدراته وملكاته عن قدرات بعض الحيوانات، التي ترى وتسمع ما ليس في وسع الإنسان رؤيته وسماعه، وبيان عجزه عن درك أمور يعلمها خلق من خلق الله، هم أقل منه تكريما وفضلا، مما يقهر غرور الإنسان ويكسر فيه فورة الكبر والتعالي على مخلوقات الله.

ثبت بأهم المصادر والمراجع

أولا: القرآن الكريم

ثانيا: كتب التفسير وعلوم القرآن

ثالثا: كتب السنة والسيرة النبوية

رابعًا: كتب اللغة والتراجم

خامسا ـ كتب العقيدة والفلسفة وأخرى

- إبراهيم/ د: عبد الستار «الحكمة الضائعة» الإبداع والاضطراب النفسي والمجتمع، ط/ سلسلة عالم المعرفة، عدد ٢٨٠، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.
- ابن تيمية..... «الرد على المنطقيين» ط/ دار المعرفة ـ بيروت، بدون.
- ابن تيمية/ أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام الحراني «النبوات» ت/ محمد عبد الرحمن عوض، ط/ دار الريان للتراث، ط/ ١، سنة ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م،
- ابن تيمية/ أبو العباس أحمد بن عبد السلام بن عبد الحليم الحراني «درء تعارض العقل والنقل» ت/ عبد اللطيف عبد الرحمن، ط/ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ سنة ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م.
- ابن خلدون/ عبد الرحمن بن محمد الحضرمي «المقدمة» ط/ دار القلم، ط/ ٥ ـ بيروت ـ سنة ١٩٨٤م.
- ابن قيم الجوزية..... «مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين» ت/ محمد حامد الفقي، ط/ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ ط/ ٢، سنة ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م
- ابن قيم الجوزية...... «بدائع الفوائد» ت/ هشام عبد العزيز عطا ـ عادل عبد الحميد العدوي، ط/ مكتبة نزار مصطفى الباز ـ مكة المكرمة ـ ط/ ١، سنة ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م.
- ابن قيم الجوزية.... «زاد المعاد في هدي خير العباد» ت/ شعيب الأرناؤوط ـ عبد القادر الأرناؤوط، ط/ مؤسسة الرسالة ـ مكتبة المنار الإسلامية ـ بيروت ـ الكويت ـ ط/ ١٤، سنة ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٦م.

- الآمدي/ علي بن أبي علي بن محمد بن سالم «غاية المرام في علم الكلام» ت/ حسن محمود عبد اللطيف، ط/ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ـ القاهرة ـ سنة ١٣٩١هـ.
- أيوب/ حسن «تبسيط العقائد الإسلامية»، ط/ دار السلام، ط/ ٣، ١٤٢٨هـ – ٢٠٠٧م.
- البيجوري/ الشيخ إبراهيم بن محمد الجيزاوي «حاشية البيجوري على جوهرة التوحيد» ت/ د: على جمعة، ط/ دار السلام، ط/ ٦، سنة ١٤٣٣هـ ـ ٢٠١٢م.
- البيضاوي/ الإمام ناصر الدين عبد الله بن عمر «طوالع الأنوار من مطالع الأنظار» ت/ د: محمد ربيع جوهري، ط/ دار الاعتصام، ط/ ١، سنة ١٤١٨هـ ـ١٩٩٨م.
- البيضاوي/ الإمام ناصر الدين عبد الله بن عمر «طوالع الأنوار من مطالع الأنظار» ت/ د: محمد ربيع جوهري، ط/ دار الاعتصام، ط/ ١، سنة ١٤١٨هـ – ١٩٩٨م.
- التفتازاني/ مسعود بن عمر بن عبد الله «شرح المقاصد» ت/ إبراهيم شمس الدين، ط/ دار الكتب العلمية، ط/ ١، سنة ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م.
- الجرجاني/ السيد الشريف علي بن محمد «شرح المواقف» ت/ محمود عمر الدمياطي، ط/ دار الكتب العلمية ط/ ١، سنة ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م.
- خان/ وحيد الدين «الإسلام يتحدى» ترجمة/ ظفر الدين خان، مراجعة وتقديم: د. عبد لصبور شاهين، الناشر/ مكتبة المدينة المنورة – القاهرة – ط/ ١، ١٤٣١هـ – ٢٠١٠م.
- دراز/ د. محمد عبد الله «المختار من كنوز السنة» عني بنشره عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، قطر، سنة ١٩٨٢م.
- دراز ..... «النبأ العظيم» هامش ص٩٧، تقديم: د. عبد العظيم المطعني، ت/ أحمد مصطفى فضلية، ط/ دار القلم – الكويت، الناشر/ دار القلم – القاهرة – ط/ ٩، ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م.

- رسل/ برتراند «ألف باء النسبية»، ترجمة فؤاد كامل، ط/ الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة، ٢٠٠٢م.
- رضا/ الشيخ محمد رشيد «الوحي المحمدي» ط/ الزهراء للإعلام العربي، سنة ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨م.
- الشهرستاني/ أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أحمد «الملل والنحل» ت/ محمد سيد كيلاني، ط/ دار المعرفة ـ بيروت ـ سنة ١٤٠٤هـ.
- الشهرستان..... «نهاية الإقدام في علم الكلام» ت/ ألفريد جيوم، ط/ مكتبة زهران، بدون.
- الصافي/ د. محيي الدين أحمد، جوهري/ د: محمد ربيع محمد «العقيدة الإسلامية والأخلاق» الناشر/ دار الطباعة الحديثة ـ القاهرة ـ ط/ ١، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م.
- عبد الرازق/ د. مصطفى «الدين والوحي والإسلام» الناشر/ مكتبة الثقافة الدينية، ط/ ١، ١٤٢٧هـ – ٢٠٠٧م.
- عبده/ الشيخ محمد «رسالة التوحيد» ط/ دار الكتاب العربي، سنة ـ ١٣٨٥هـ ـ ١٩٦٦م.
- الغزالي/ الإمام أبو حامد محمد بن محمد «المستصفى من علم الأصول» ت/ محمد عبد السلام عبد الشافي، ط/ دار الكتب العلمية، ط/ ١ ـ بيروت ـ سنة ١٤١٣هـ.
- الفنجري/ د. محمد شوقي «القرآن والطب الحديث»، ط/ الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٠م.
- القرطبي/ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح «الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام وإظهار محاسن الإسلام» ت/ د: أحمد حجازي السقا، ط/ دار التراث العربي ـ القاهرة ـ سنة ١٣٩٨هـ .

- لجنة من قسم العقيدة والفلسفة بجامعة الأزهر «دراسات في العقيدة الإسلامية والأخلاق» مطابع أخبار اليوم، سنة ١٤٣١ ـ ١٤٣٢هـ / ٢٠١٠ ـ ٢٠١١م.
- نصار/ د: محمد عبد الستار، المناعي/ د: عائشة يوسف «أصول العقيدة الإسلامية من الكتاب والسنة» ط/ ٣، سنة ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م.
- نولدكه/ تيودور: «تاريخ القرآن» ترجمة وقراءة نقدية للدكتور: رضا محمد الدقيقي، الجزء الأول بعنوان: «الوحي إلى محمد بين الإنكار والتفسير النفسي»، سلسلة إصدارات وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية – قطر – بالتعاون مع دار النوادر – الكويت – الإصدار السابع، ط/ ٢، ١٤٣٢هـ – ٢٠١١م.
- نيومان/ جيمس، ويلسون/ ميشيل، «رجال عاشوا للعلم»، ترجمة: أحمد شكري سالم، ط/ الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة، ٢٠٠١م.
- وجدي/ محمد فريد «الإسلام دين عام خالد» مطبعة دائرة معارف القرن العشرين، ط/ ١، ١٣٥١هـ – ١٩٣٢م.

فهرس الموضوعات